مفهوم الواجب الأخلاقي عند ماركوس أوريليوس
من النظرية إلى التطبيق

د.جيهان حمدى محمود جمعه[1]

مستخلص

موضوع البحث هو "مفهوم الواجب الأخلاقي عند ماركوس أوريليوس- من النظرية إلى التطبيق". ونعلم أن الإمبراطور ماركوس أوريليوس أنطونيوس (121- 180م)، من أشهر فلاسفة الرواقية الرومانية، وكان له آراء فلسفية عن الواجب الأخلاقي الذي يتطلب الفعل وليس القول فقط، بالأحرى تلازم النظرية والتطبيق. فالحياة الفاضلة التي ينبغي على الحكيم أن يسعى إليها هى تلك التى تحدد واجب الإنسان، أى ما ينبغي عليه عمله على أساس قانون الطبيعة، العقل الكوني الكلي. فقد أتاحت الظروف لماركوس أن يكون إمبراطورًا على روما (161-180م)، وكانت فترة حكمه مليئة بالكوارث والاضطرابات والتحديات، ومع ذلك كان نموذجًا لفيلسوفٍ رواقيّ تمكن إلى حد كبير من تطبيق مبادئه الأخلاقية ولاسيما واجبه الذي كان ينظر إليه كغاية قصوى، بحيث يمكن القول إن الأحداث التي أحاطت بماركوس وسلوك الانضباط في تطبيق مبادئه الأخلاقية وآرائه الفلسفية، قد ميزه عن غيره من فلاسفة الرواقية. فبمجهوده الإيثاري لحماية الإمبراطورية الرومانية، حول القدر إلى قوة إيجابية بعناية فائقة. ونجد في تأملات ماركوس ما يؤكد ذلك كقوله: "واجبك أن تجمع بين النظر والعمل"(10-9)، وأيضًا" في تطبيقك لمبادئك كن كالملاكم لا المجالد" (12-9)، فقد أرسى ماركوس في فلسفته أنه ليس فقط بالتأملات والممارسات الدينية تدار البلاد، ولكن بالعمل الدؤوب لجعل مؤسسات الإمبراطورية جيدة لخدمة المواطنين، فرسخ قيمة

([1]) مدرس الفلسفة اليونانية، قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة الفيوم.

(ISSN: 2536 - 9555)

العمل والتعاون ومراعاة الضمير والنقد والتحكم الذاتي في إطار حرص الإنسان على أداء واجبه. لما له من آثار إيجابية على نهضة المجتمع وقيمه، وخاصة إذا كان من أهتم به وحرص على إتقانه هو إمبراطور صديق للحكمة قدم من خلال إنجازاته أروع مثال لتلازم القول والفعل علماً بأن السلطة السياسية والسلطة الأخلاقية قد يصعب التقائهما معاً تطبيقياً، ومن التناقض أنه في إطار الاتجاه العام للفكر الرواقي المادي القائل بمبدأ الحتمية الطبيعية حيث تكون مسألة الفضيلة والرذيلة، مسألة شخصية لا تأثير لها على الغير، أما في ضوء الموقف الاجتماعي القائم على فكرة الواجب الأخلاقي، يمكن أن يكون للصفات الأخلاقية لكل شخص تأثير واضح على الأخرين.

الكلمات المفتاحية: الواجب الأخلاقي– الفضيلة– العقل– الحتمية– الحرية– الجبرية– القدر– الضمير– التعاون– التعاطف– الإحسان– النقد الذاتي– التقوى– الغاية القصوى.

Summary

The subject of the research is the "Marcus Aurelius' concept of moral duty –from theory to practice". and we know that Emperor Marcus Aurelius Antonius (121-181 AD) represents one of famous Roman Stoic Philosophers and he had philosophical views about the moral duty that requires action and not just words. Rather, it accompanies theory and practice. The virtuous life that the wise should seek is that which defines the duty of man, that is, what he must do on the basis of the law of nature, the universal cosmic mind.

Circumstances allowed Marcus to be Emperor of Rome (161 – 180 AD) and his reign was full of disasters, turmoil and challenges. Nonetheless, he was an example of the stoic philosopher who was largely able to apply his moral principles, particularly his duty, which he saw as an ultimate goal. So that it can be said that the events surrounded Marcus and his disciplinary behaviour in applying his moral principles and philosophical views, distinguished him from other Stoic philosophers.

By his altruistic efforts to protect the Roman Empire, he turned the fate notion into a positive force with great care. We find in Marcus Meditation what confirms this, as he said: "It is your duty to combine consideration and action." (10-9) and also, "in your application of your principles, be like a boxer, not a gladiator." (12-9). Marcus established in his philosophy that it is not only by meditation and practices, religious affairs run the country. But by diligent hard work to make the institutions of the Empire good, to serve the citizens, establish the value of work and cooperation, conscientious, criticism and self-control in the framework of human keenness to perform his duty.

Because of its positive effects on the renaissance of society and its values, especially if the one who cares about it and is keen on mastering it is an Emperor who is a friend of wisdom, who presented through his accomplishments, the most wonderful example of the correlation of sayings and deeds, knowing that political and moral authority may be difficult to meet together in practice. Also, it is contradictory that it is within the framework of the general trend of the materialistic Stoic, though that the principle of natural determinism is where the issue of virtue and vice is a personal matter, that has no effect on others. But in light of the social position based on the idea of moral duty, each person's moral qualities can have a clear impact on others.

The keywords for the research: Moral Duty– Virtue– Reason– Determinism– Free Will– Fatalism– Fate– Conscience– Cooperation– Sympathy– Beneficence– Self-Criticism– Piety– Ultimate Goal.

المقدمة

موضوع البحث هو «مفهوم الواجب الأخلاقي عند ماركوس أوريليوس- من النظرية إلى التطبيق»، ونعلم أن ماركوس أوريليوس (121-180م) هو من أشهر أعلام الرواقية الرومانية، فقد كان مثلاً عمليًا للفلسفة الرواقية في نضوجها الكامل، ومتميزًا عن غيره من فلاسفة الرواقية بالأحداث التي أحاطت به، وسلوك الانضباط في تطبيق مبادئه الأخلاقية. فهو لم يكن فيلسوفًا فحسب، إنما كان

(ISSN: 2536 - 9555)

أيضًا إمبراطورًا على روما في الفترة (161–180م)، ومن هنا تكمن أهمية البحث الذي يبرز مدى تأثير مفهوم الواجب الأخلاقي في سلوك الإمبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس، أي أخلاقية السلطة السياسية. وقد قدم ماركوس من خلال إنجازاته أروع مثال لتلازم القول والفعل، فقد أرسى في فلسفته أنه ليس فقط بالتأملات والممارسات الدينية تُدار الدول إنما بالعمل الجاد المخلص الدؤوب، امتثالاً للواجب، ويهدف البحث إلى توضيح أهمية الأخلاق في صورتها التطبيقية وخاصةً مفهوم الواجب، للشعور بالانتماء والمواطنة ونهضة المجتمعات، في حين يصعب أحيانًا الجمع بين المبادئ الأخلاقية وممارساتها التطبيقية، وهنا تنبعث مشكلة مَن الذي لديه الحق في تحديد الواجب وطبيعته أهو المجتمع، أم الإله، أم الضمير؟ ... إلخ. فقد كانت وما زالت مصادر وأسس الواجب من المشكلات الرئيسية في الفكر الأخلاقي.

ولمعرفة مدى تأثير الفلسفة على الحياة العملية لماركوس أوريليوس على نحو صحيح لابد من الانتقال من الواجبات العامة إلى أعماق نفسه التي تبدو واضحة في تأملاته، فتتكشف الذات في حالة لم تحدث لأي حاكم آخر، فلدينا سجل لرحلته الفكرية، وعرض لمكنوناته في حوار رائع بين الإنسان ونفسه في مؤلفه «إلى نفسي» أو ما سُمِّي بـ«التأملات».

ويحاول البحث الإجابة عن عدة تساؤلات، أهمها الآتي:

- ما مفهوم الواجب الأخلاقي؟
- ماذا يعني الواجب الأخلاقي عند ماركوس أوريليوس؟
- ما الأسس الفلسفية لمفهوم الواجب الأخلاقي عند ماركوس أوريليوس؟
- كيف استطاع ماركوس أوريليوس التوفيق بين الفلسفة والسياسة، وإلى أي مدى نجح في تطبيق مبادئه الأخلاقية وعلى رأسها الواجب؟
- هل كان ماركوس أوريليوس هو الحاكم الفيلسوف كما تصوره أفلاطون؟

- هل قدم ماركوس أوريليوس تعريف للواجب وميَّز بين أنواعه؟
- كيف نفهم الواجب الأخلاقي الاجتماعي عند ماركوس أوريليوس في إطار الفكر الرواقي المادي الذي يدين بالحتمية الطبيعية، حيث أن مسألة الفضيلة والرذيلة وفقًا لهم مسألة شخصية لا تأثير لها على الغير، أما في ضوء الموقف الاجتماعي فإن الصفات الأخلاقية يمكن أن يكون لها تأثير واضح على الآخرين؟

أما عن المناهج المستخدمة في البحث فهى عدّة: «التاريخي- التحليلي- النقدي- المقارن»، وذلك لتتبع فكرة الواجب وأسسها الفلسفية لدى ماركوس أوريليوس، وتحليل النصوص لتفسيرها، واستنباط الآراء اللازمة منها، ثم نقدها، ومقارنتها بآراء الفلاسفة السابقين والمعاصرين لماركوس.

ويتألف البحث من مقدمة وثمانية عناصر وخاتمة، أما المقدمة فقد قمت فيها بالتعريف بموضوع البحث وتوضيح أهميته، كما عرضت فيها للتساؤلات الموجهة للدراسة، وأشرت فيها إلى المنهج المستخدم في إعداده، وأما عن العناصر فهي كالآتي:

1- مفهوم الواجب الأخلاقي.
2- الإمبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس (حياته ومؤلفاته).
3- الأسس الفلسفية لمفهوم الواجب الأخلاقي عند ماركوس أوريليوس.
4- تصور ماركوس أوريليوس لطبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع.
5- الواجب الأخلاقي كغاية قصوى عند ماركوس أوريليوس.
6- النقد الذاتي وإيقاظ الضمير عند ماركوس أوريليوس.
7- بواعث الالتزام بالواجب الأخلاقي عند ماركوس أوريليوس.
8- الواجب الأخلاقي عند ماركوس أوريليوس بين الوحدة الرواقية والثنائية الأفلاطونية.

أما الخاتمة فقد دوَّنت فيها أهم النتائج التي انتهيت إليها.

(ISSN: 2536 - 9555)

1- **مفهوم الواجب الأخلاقي**:

يُعد مفهوم الواجب Duty من المفاهيم الرئيسية في فلسفة الأخلاق، فهو يدل على إلزام خلقي على كافة الناس الذين يخضعون لتجارب معينة، بحيث يتشكل المفهوم بأحد المواقف المميزة التي تحدث في لحظة ما، وتُعبِّر عن ظرف إنساني معين. إن التعاليم الأخلاقية تُعبِّر عن موقف المجتمع تجاه أفراده، كما أن الواجب بدوره يُعبر عن موقف الأفراد تجاه المجتمع، وفي إطار الاحترام السائد، فإن الأفراد تحدد الواجبات الأخلاقية للمجتمع الذي عليه الالتزام بها[2]. فالواجب هو ما ينبغي فعله وفقًا للقانون الخلقي، فهو ضروري لحفظ النظام، دون ارتباط فعله بالمنفعة أو الشعور بالسعادة، كالإخلاص والتفاني في العمل، والتعاون لحماية الوطن، ومساندة الصغير واحترام الكبير... إلخ.

أما الواجب بشكل خاص Obligation فهو التزام أخلاقي وتحدي مفروض على شخص معين، وقد تحكمه علاقة تعاقدية قانونية[3]، وسواء كان الواجب عام أو خاص فهو ليس مسألة شعور فحسب، إنما هو شعور يلازمه الفعل، فعندما يدرك المرء ما هو الواجب؛ عليه أن يطبقه عمليًا بإرادته ويمتنع عن تركه.

ومن المصطلحات الدالة على الواجب الأخلاقي مصطلح Deontology وهو مصطلح قدمه جيرمي بنثام Jeremy Bentham الذي استخدمه ليعرف النظرية الأخلاقية ككل، وهو مصطلح يوناني الأصل، فكلمة deon تعني ملزم أو التزام، وكلمة Logos تعني علم، لذلك عُرِّف بأنه علم الواجبات أو علم الأخلاق أو

(2) A Dictionary of Ethics, Translated from Russian, Designed by Alexei Lisitsyn, ed.: by, Group of Authors, Progress Publishers, Moscow, 1990, p.95, (duty). See Also: the Dictionary of Philosophy, ed. By: Dagobert D. Runes, Philosophical Library, New York, W.D., p.85, (duty).

(3) Ibid., p.312, (obligation).

الأخلاق الواجبة، وهي الأخلاق المعيارية التي تحكم على مدى أخلاقية أي سلوك على أساس مدى ملاءمة هذا السلوك للقواعد والمعايير الأخلاقية، وتوصف هذه الأخلاق بأنها «واجب أو التزام». ومع ذلك فقد تميَّز علم الأخلاق عن علم القيم الذي يقوم بدراسة الخير والشر، فعلم الواجب هو بمثابة خصوصية للوعي الأخلاقي كشكل محدد للوعي الاجتماعي الذي يعكس احتياجات المجتمع ومتطلباته[4]، دون أن يعني ذلك ما قصده كانط بأن الواجب أمر مطلق، وإنما يعني الدراسة التجريبية للواجبات المتباينة التي تتغير بتغير الظروف، ومن أتباع هذا المذهب جون ستيوارت مل. وفي الآداب الفرنسية المعاصرة يُطلق هذا اللفظ على الواجبات الخاصة بمهنة، فيقال مثلاً واجبات الطبيب[5].

ويدل المصطلح اليوناني kathêkon أيضًا على الواجب، أو المهام، والكلمة أساسًا تعني يصل إلى أو يبلغ، ويقصد بها الأشياء المتناسبة أو المتوافقة، في مقابل الأشياء غير المتوافقة والأفعال المحظورة والمخزية[6].

وقد اختلف مفهوم الواجب في الأخلاق النظرية باختلاف الفلاسفة وتوجهاتهم. فبعض فلاسفة الأخلاق كـ(برادلي وشيشرون) اهتموا بالواجبات اليومية التي تتعلق بكون الإنسان أحد الوالدين، المعلم... إلخ، لكن كثيرًا من الفلاسفة استخدموا كلمة «واجب» بشكل عشوائي تمامًا للإشارة إلى الالتزامات الخاصة، والمبادئ الأخلاقية، أو في الواقع إلى أي شيء يعتبر شرطًا للضمير Conscience[7]،

(4) A Dictionary of Ethics, p.84, (Deontology).

(5) د. مراد وهبة: المعجم الفلسفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب– القاهرة، 2016م، ص771، مادة (واجب أخلاقي).

(6) An Intermediate Greek- English Lexicon founded Upon the Seventh Edition of Liddell and Scott's, Harper & Brothers, New York, 1889, p.389.

(7) Encyclopedia of Philosophy, Vol.3, editor Chief; Donald M. Borchert, 2ed ed., Thom Gale, New York, 2006, p.152, (duty).

(ISSN: 2536 - 9555)

وتُعد مسألة تفسير طبيعة الواجب وأصوله واحدة من أصعب المشكلات في تاريخ الفكر الأخلاقي. فقد كانت أسس ومصادر الواجب متغيرة، وتوجد إجابات مختلفة لسؤال من الذي يملك الحق ليحدد جوهر الواجب؟ هل المجتمع كما في النظريات الاجتماعية، أم الإله كما في الأفلاطونية المحدثة، أم الضمير كما عند فيخته؟... إلخ[8].

ويرتبط مفهوم الواجب الأخلاقي بعدة مفاهيم أخلاقية أهمها: الضمير وحرية الإرادة. فالواجب الأخلاقي هو نداء الضمير من الوجود الإنساني الحق إلى وجوده الظاهري المحدود بقصد العمل. وليس الضمير هدفًا للإرادة الحرة وإنما هو منبعها[9]، ويعرف الضمير بأنه شعور بإلزام خلقي، يحدد ما ينبغي عمله، ويؤدي إلى إحساس الفرد بالندم أو التقصير إذا تعارض سلوكه مع مبادئه الأخلاقية[10]، ويقوم الفرد بأداء واجبه بإرادته الحرة، فيقول جون سيمون: «سواء اتبع المرء الواجب أو استسلم للشهوات فلا يتم ذلك إلا بالإرادة، فلن تتمكن الشهوات من المرء إلا بتسليم منه وبإرادته»[11]. وبالتالي فالفعل الإنساني سواء وافق الإرادة أو لم يوافقها فليس ذلك إلا تعبيرًا عنها.

ويذهب دعاة الحرية إلى أن الإنسان حرّ في أن يريد أو لا يريد، فإذا لم توجد إرادة حرة، فإنه لن توجد أخلاق، فإذا كان الإنسان مجبرًا على أفعاله، فكيف يمكن

([8]) Dictionary of Ethics, op. cit., p.95, (duty).

([9]) د. محمد ثابت الفندي: مع الفيلسوف، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2004م، ص57.

([10]) The Dictionary of Philosophy, op. cit., p.63, (Conscience).

([11]) چول سيمون: الواجب، ج(1)، ترجمه من اللغة الفرنسية: محمد رمضان، طه حسين، تعقيب: الشيخ مصطفى عبد الرازق، تقديم: د. أحمد زكريا الشلق، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط(2)، القاهرة، 2010م، ص ص21–26.

سؤاله أخلاقيًا عن أفعاله؟[12] غير أن هناك من يؤيد مبدأ الحتمية في علم الأخلاق، من حيث إن شخصية أي إنسان هي التي تحدد أفعاله، وهي المسئولة عنها، لأنها صدرت عنها، فالإنسان يسلك هذا الفعل أو ذاك لكونه هذا الشخص بالذات[13]، ومن ثم يوجد تياران متعارضان؛ أحدهما يؤمن بحرية الإنسان، والآخر لا يؤمن بها.

وقد كان الرواقيون هم أول من أبرز وعمَّم فكرة أن الإنسان عليه واجب يحيا من أجله، بغض النظر عن الاعتبارات الخاصة بالسعادة الإنسانية، فالإنسان لكي يكون فاضلاً لابد من أداء واجبه، وعلى الرغم من أن سقراط وأفلاطون وأرسطو بحثوا في الفضائل، إلا أنهم ركزوا أساسًا على ماهية الخير بدلاً من العمل وفقًا له[14]. فقد كانت الرواقية اليونانية القديمة تنظر للفلسفة باعتبارها «ممارسة الحكمة»، وأكدت– كالأبيقورية– على الأهمية العملية للفلسفة، وغايتها كانت تعليم الإنسان «الحياة وفقًا للطبيعة»، وقد انطلقت من تصور جبري، «القدر المحتوم» للوجود كله. لذلك فإن طلب الحياة في وفاق مع الطبيعة يفترض في أحد جوانبه معرفة الطبيعة، والآخر استسلام غير مشروط للضرورة الطبيعية، والإنسان لا يمكنه تغيير أي شيء في القدر المحتوم للأشياء. والحكيم هو من امتلك الفهم والإدراك للمحتوم، واستسلم له، وتنازل عن السعادة الحسيَّة للابتهاج بالفضيلة[15].

([12]) و. ت. ستيس: الحتمية الرقيقة، مشكلة الإرادة الحرة، ضمن كتاب «الفلسفة وقضايا العصر»، ج(1)– أبحاث ومقالات جمعها: چون ر. بور، ميلتون جولدينجر، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1990م، ص ص60، 61.

([13]) هرمان هـ. هورن: الحتمية– البراهين المؤيدة للحتمية، ضمن كتاب «الفلسفة وقضايا العصر»، ج(1)، ص54.

([14]) The Dictionary of Philosophy, op. cit., p.85, (duty).

([15]) Theodor Oizerman, Problems of the History of Philosophy, Translated from the Russian by Robert Daglish, Progress Publishers, First Printing, Moscow, 1973,p.34.

(ISSN: 2536 - 9555)

ويُعد زينون الرواقي أول من استخدم مصطلح kathêkon بمعنى الواجب، فهذا المصطلح يدل على الأفعال التي تتوافق مع الطبيعة، لأن الأفعال– كما اعتقد زينون– فئة منها تتناسب (تتوافق) مع الطبيعة، ويحبذها العقل كتوقير الوالدين وبرهما، حماية الوطن، التعامل مع الأصدقاء بدماثة خلق... إلخ، وفئة أخرى لا تتناسب، وينبذها العقل كعقوق الوالدين... إلخ، وفئة ثالثة لا هي تتناسب ولا هي لا تتناسب أي غير فارقة، كالكتابة بريشة، وهناك واجبات غير مقيدة بشرط وأخرى مقيدة بشرط، وهناك واجبات مُلزمة باستمرار، وأخرى لا يتطلب استمرارها، والحياة وفقًا للفضيلة هي من الواجبات المطلوبة باستمرار[16].

2- **الإمبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس** (**حياته ومؤلفاته**):

يُعد ماركوس أوريليوس من أشهر أعلام الفلسفة الرواقية، هو آخر فيلسوف في الرواقية الرومانية[17]، ونعلم أن الرواقية كانت إحدى الفلسفات المهيمنة في العصر الهللينستي، تأسست على يد زينون الكيتومي في نهاية القرن الرابع ق.م، استمدت اسمها من الرواق المزخرف، حيث كان زينون يُعلِّم فيه تلاميذه في أثينا، وتُنسب إليه كل العقائد الأساسية للرواقية. وفي القرن التالي قام كريسيبوس بصياغتها كنظام نهائي ومحدد في سلسلة مؤلفات، وتسمى هذه المرحلة بالرواقية المبكرة، وفي القرنين الأول والثاني قبل الميلاد قام كل من بانيتوس وبوسيدونيوس ببعض التغيرات في التركيز والتفاصيل، ويُطلق على هذه المرحلة بالرواقية الوسطى، وفي الإمبراطورية الرومانية تم تعديل المذهب أكثر من ذلك على أيدي كل من سينيكا وإبكتيتوس وماركوس أوريليوس وسُمِّيت هذه المرحلة بالرواقية

(16) ديوجينيس اللائرتي: حياة مشاهير الفلاسفة، المجلد الثاني، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة: محمد حمدي إبراهيم، المركز القومي للترجمة، ط(1)، القاهرة، 2007، فقرة (108، 109)، ص ص191، 192.

(17) Gilbert Murray, The Stoic Philosophy, George Allen Unwin, Ltd., England, 1915, p.41.

الرومانية أو المتأخرة، ولكن ظلت الرواقية في جوهرها نظام شامل موحد منذ زينون وكريسيبوس، حتى تلاشت بعد نهاية القرن الثالث الميلادي[18].

لقد انقسم تاريخ الرواقية بذاته إلى فترتين: الفترة الأولى كان مركزها في اليونان، وجزء ضئيل في آسيا، والفترة الثانية في روما. فقد كانت ظروف الحياة في روما سببًا في أن تتخذ الرواقية شكلاً خاصًا. فالرواقية الرومانية لها سماتها الخاصة[19]. ويرى الفريد بن Alfred Benn أن أعظم ثلاث رواقيين في الإمبراطورية الرومانية هم: سينيكا، وإبكتيتوس، وماركوس أوريليوس، بل ربما أعظم من المؤسسين لهذه المدرسة، وذلك لأن تعاليمهم صادفت تطور عام في الفكر، وأيضًا لأن مؤلفاتهم حُفظت ووصلت إلينا بشكل كامل[20] لنعلم من خلالها أن هذا العصر أصبح فيه الفكر الأخلاقي هو الفلسفة كلها[21]، وقد كان ذلك وفقًا لمتطلباته ومنها إصلاح الفساد الأخلاقي الذي اعتُقد أنه بدأ في روما مع انتشار فلسفة أبيقور[22]، ولم يكن غريبًا على الرواقية إصرارها المستمر على الأخلاق، وجديتها الصارمة، والخضوع والالتزام المخلص للإرادة الإلهية[23]، فالأخلاق هي

---

(18) The Concise Encyclopedia of Western Philosophy, ed. By: Jonathan Rée and J. O. Urmson, 3rd ed., Routledge, London, 2005, p.367. (Stoicism). See Also: Dictionary of Philosophy, .301, (Stoic School).

(19) Eduard Russell Bernard, Great Moral Teachers, Macmillan, New York, 1906, p.90.

(20) Alfred William Benn, Greek Philosophers, Vol.2, Kegan Paul, London, 1882, p.37.

(21) د. عثمان أمين: الفلسفة الرواقية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1945م، ص49.

(22) مونتسكيو: تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط، نقله من الفرنسية إلى العربية: عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، ط(1)، المغرب، 2011م، ص95.

(23) Cleanthes, The Hymn, Greek Text Translated into English with Brief Introduction and Notes by E. H. Blakeney, Macmillan Co., New York, 1921, p.4. (Notes on Cleanthes and the Stoics).

(ISSN: 2536 - 9555)

نقطة تتويج النظام الرواقي، لأن هدف الحياة وموضوعها في تصورهم هو الحياة وفقًا للطبيعة، أي أن يعيش الإنسان وفقًا للفضيلة لأن هذا هو الهدف الذي تسير به الطبيعة، وهذا هو واجبه في الحياة[24].

وقد عُرف ماركوس أوريليوس باعتباره الأكثر إثارة للإعجاب، فهو ممثل عملي للفلسفة الرواقية فى نضوجها الكامل[25].

ففي الوقت الذي كان يكرّس فيه وقته للفلسفة دون أن يحيد، كان أيضًا إمبراطورًا على روما[26]، كان جسده واهنًا، وعقله مستنيرًا يميل إلى الفلسفة والأدب، وروحه الدينية، وذوقه وطبعه. كل ذلك كان من المفترض أن يقوده إلى حياة الراحة والسرور، حيث التمتع بالكتب والصداقة والعواطف الأسرية والهدوء، ومباهج الحياة دون عائق، لكن اضطرته الظروف غير المألوفة إلى مواجهة الكثير من المتاعب والتصدي لها، وأن يقوم بدوره في الحياة لتحقيق واجبه الشاق في شجاعة وثبات. وقد كان حكم «أنطونيوس» السابق عليه (138–161م) هادئًا إلى حدٍ ما، لكن حكم ماركوس، كان يبدو كما لو أن غضب السماء قد حلَّ، فيضانات، كوارث، خراب، تمرد، أوبئة، انحدرت بالشعب الروماني[27].

وتميَّز ماركوس بنبل أخلاقه وأشاد بذلك مونتسكيو إذ وصفه قائلاً: «إنه خير خلف لخير سلف، تنشرح النفس لذكره، ويشعر الناظر في سيرته بنوع من البهجة

---

(24) Zeno and Cleanthes, the Fragments, with Introduction and Explanatory Notes, by A. C. Pearson, Cambridge university press, Cambridge, 1891, p.13. (Introduction).

(25) E. Vernon Arnold, Roman Stoicism, Cambridge university press, Cambridge, 1911, p.404.

(26) ريكس وورنر: فلاسفة الإغريق، ترجمة: عبد الحميد سليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م، ص225.

(27) Henry Dwight Sedgwick, Life of Marcus Aurelius, Yale university press, London, 1920, p.139.

تجعله يعتز بنفسه، إذ يفخر بالإنسانية جمعاء»[28]. ظهرت عليه علامات الحكمة والصلاح منذ الصغر، وقد أُعجب الإمبراطور هادريانوس (حكم من 171–138م) بأخلاقه، وكان يدعوه Verissimus (الأصدق) بدلاً من "Verus" (الصادق)، تزوج أنطونيوس من عمة ماركوس، وتبناه فصار اسمه «ماركوس أوريليوس أنطونيوس» بدلاً من «ماركوس أنيوس فيروس» (اسمه الحقيقي)، وبعد وفاة الإمبراطور أنطونيوس أبيه بالتبني، اعتلى ماركوس عرش الإمبراطورية[29]، وقد أدت ملامح شخصيته وتنشئته في بلاط القصر، وممارسته للفلسفة إلى قدرته الفائقة على المزج بين فكره الفلسفي وعمله السياسي والاجتماعي، وتطبيق مبادئه الفلسفية التي قامت على أفكار جوهرية كعقلانية النظام العالمي، وحدة الوجود، العناية الإلهية، مفهوم الحقيقة المحتملة بدلاً من التأكيدية الرواقية الصارمة، الأخوة العالمية، مفهوم الواجب الأخلاقي كغاية قصوى للوجود الإنساني، وعدم جدوى الحياة بدونه.

وقد وصلت النظرية الرواقية لتفسير التاريخ ذروتها عند ماركوس. فالعالم ككل في عملية «دور» وقد تميز الإمبراطور الفيلسوف عن سابقيه بأن طبق هذا التصور على التاريخ الإنساني[30]، فما يحدث اليوم في نظر ماركوس قد حدث مرارًا وتكرارًا، وهو جزء من تاريخ العالم الذي لا يتغير ولا يحدث فيه جديد، ومن أقواله الدالة على ذلك: «تأمل ببصيرتك بلاط هادريان أو بلاط أنطونيوس أو فيليب المقدوني ستجد أنها جميعًا تمثال ما لديك من دراما وإن اختلف الممثلون

([28]) مونتسكيو: المرجع السابق، ص95.

([29]) ماركوس أوريليوس: التأملات، ترجمة: د. عادل مصطفى، مراجعة وتقديم: د. أحمد عتمان، رؤية للنشر والتوزيع، ط(1)، القاهرة، 2010م، ص256، ص257، (دراسة المترجم).

([30]) د. مصطفى النشار: من التاريخ إلى فلسفة التاريخ قراءة في الفكر التاريخي عند اليونان، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت، ص98.

(ISSN: 2536 - 9555)

في كل دراما»[31]. ولم يجد ماركوس لنفسه سلوى سوى تحقيق إنسانيته من خلال التعاون مع أبناء وطنه تحت مظلة مفهومه للواجب الأخلاقي، وبمساعدة الفلسفة التي رآها كالأم التي تحتضن وتُعين ابنها وتدفعه إلى الحياة الفاضلة والعمل الموافق لطبيعته، في مقابل السياسة التي شبهها بزوجة الأب، ومن واجبه رعايتها. وتبرز هذه المقارنة قيمة الفلسفة وأهميتها لدى ماركوس وموقفه من العمل السياسي.

وقد جمع ماركوس بين الرواقية والأفلاطونية المحدثة، فهو آخر الرواقيين، وفي نفس الوقت يمكن اعتباره أول أفلاطوني محدث، ففي مذهبه «الإله داخلي»، فقد حوَّل الصلة المادية الحسية بين النفس والمبدأ العلوي إلى عقيدة صوفية كانت الدعم للجانب المضيء من تأملاته[32]. وأيضًا يُعد ماركوس تلميذًا مخلصًا لـ«لوكريتيوس» Lucretius حيث كان لديه شكوك عرضية، مع الاحترام المؤكد لمذهبه، لكن لم يتطرق الشك إلى معتقداته العملية. فقد اعتقد أنه مهما كان أصل هذا العالم، فعلاقته به يجب أن تظل كما هي. وإن كانت الأشياء فوضى بلا هدف، فالمرء يملك العقل والهدف بداخله[33].

لم يرى بوسيل Busell أي فلسفة أصيلة في الفترة المتأخرة للفلسفة الرواقية. فـ«سينيكا» على سبيل المثال خفف من صرامة الجمود العقائدي dogmatism بتعاليم أبيقور والثنائية الأفلاطونية. أما إبكتيتوس فكان سقراط آخر تحول إلى حب الإله، والقوة الطبيعية المطلقة التي تمكن خلف المظاهر، ويُنسب المذهب الرواقي الروماني لـ «إبكتيتوس» لأنه كان يقدمه في صورة غير مخلوطة

([31]) ماركوس أوريليوس: المصدر السابق، (4، 40–44) ص84. وأيضًا (10، 27) ص210.

([32]) F. W. Bussell, Marcus Aurelius and later Stoics, T & T, Clark, Edinburgh, 1910, p.30.

([33]) Alfred William Benn, Greek Philosophers, p.47.

بالأفلاطونية التي ظهر تأثيرها على سينيكا وجعلته شديد التناقض، وقادته أحيانًا إلى الأمل في الحياة المستقبلية التي أنكرها في موضع آخر[34]. أما ماركوس فقد جمع بين وجهة النظر الرواقية، متأثرًا بـ«إبكتيتوس»، مع موقف فلسفي أكثر عمومية. فقد عُرف عنه سعة ثقافته وعلمه[35]،« فالمرء يدهش من كثرة الإشارات لعيون الكتب والمؤلفات في الأدب الإغريقي واللاتيني. فليس الأمر قاصرًا على الرواقيين السابقين. بل يشمل كل المدارس الفلسفية والمذاهب الأدبية عند الإغريق والرومان»[36]، بحيث يمكننا القول أن منهجه الفلسفي كان انتقائيًا توفيقيًا، فمع إيمانه بالرواقية كعقيدة فلسفية كان ينتقي من الفلسفات السابقة والمعاصرة له أفضل المبادئ الفلسفية، ومن أقاربه وأصدقائه الصفات الأخلاقية النبيلة لإثراء حياته بالفضيلة، وتهذيب نفسه.

كان ماركوس آخر الحكام المعروفين بالأباطرة الخمسة الصالحين، كان فيلسوف رواقي روماني، لُقب بـ«الملك الفيلسوف» أو «الفيلسوف على العرش»، ويذكر دونالد ر. درلي أن فترة حكمه (161–180م) لو قُدر أن تأتي في ظروف أكثر ملاءمة لأصبحت بمثابة حكم أكثر تميزًا، يتمتع فيه شعبه بالنِعم التي تخيَّل أفلاطون أنها تعم على الدولة عندما تصبح الفلاسفة ملوكًا، لأنه كان قد تشبع بطابع الرواقية المتأخرة التي اقتصرت في جوهرها على علم الأخلاق، التي فسَّرها إبكتيتوس في كتابه «المحادثات»[37] وإن كانت الصورة التي وصلت إلينا عن

([34]) F. W. Bussell, op. cit., pp.29, 91.

([35]) Encyclopedia of Philosophy, Vol.9, p.254, (Stoicism). See Also: Dictionary of Philosophy, p.188. (Marcus Aurelius).

([36]) د. أحمد عتمان: تأملات في «تأملات» الإمبراطور الرواقي، تصديره لكتاب ماركوس أوريليوس التأملات، ص12.

([37]) دونالد ر. درلي: حضارة روما، ترجمة: جميل يواقيم الذهني، فاروق فريد، مراجعة: د. صقر خفاجة، دار نهضة مصر، القاهرة، د. ت، ص284.

(ISSN: 2536 - 9555)

ماركوس تفوق في سموها وواقعيتها صورة الملك الفيلسوف التي تخيلها أفلاطون في مدينته الفاضلة التي لم يتمكن من إقامتها وتطبيقها. وكم من انتقادات وُجهت لنظام المدينة الفاضلة وقوانينها التي افترضها أفلاطون، والتي تعتمد شيوعية النساء والأبناء وحرمان الملوك من حقوق طبيعية وشخصية، فهي صورة متطرفة وغير متوافقة مع الطبيعة الإنسانية، ناهيك عن تمييز أفلاطون الطبقي للناس، فالقمة يحتلها الحكام لمعدن نفوسهم الذهبي ثم يليهم في المرتبة الطبقة ذات المعدن الفضي ويمثلها الحراس أو الجنود، ثم النحاس وهو معدن باقي المواطنين من زُراع وصُناع... إلخ، أي عامة الناس، وهذه الطبقية لصالح الحكم الأرستقراطي، الذي مال إليه أفلاطون وأيَّده، أما ماركوس فقد كان يؤمن بالمساواة بين جميع مواطني المدينة العالمية، وأخوة البشر جميعًا لأن أصلهم واحد، المتميز بينهم ما هو إلا مسألة أدوار أو واجبات للانسجام والتوازن الكوني. فلم ير ماركوس نفسه و هو إمبراطور سوى مواطن واجبه خدمة شعبه، يمارس الفضيلة، ويستلهم القدوة من المحيطين به، فأخلاقه وتأملاته جعلته موضع تقدير وثناء من كثير من الفلاسفة والملوك والسياسيين حتى يومنا هذا.

فقد كانت الروح النبيلة لماركوس برهانًا على نقائه ضد الإغراءات[38]، وقد اضطرته الظروف إلى اضطهاد المسيحيين لخروجهم عن دين الدولة، وكان دينًا فلسفيًا وضعيًا (المذهب الرواقي) واعتبر ما فعله ضدهم ضرورة سياسية لأمن الإمبراطورية[39]، وكانت معاملته القاسية للمسيحيين لا تتواءم مع طبيعته اللطيفة، وهذا ما يعكس الطابع المتغير للرواقية بسبب تدهور روما[40]، وربما يكون موقف ماركوس من المسيحية سببًا في تضارب آراء المفكرين الغربيين فيه، فقد ذكر

([38]) A. W. Benn, op. cit., p.46.

([39]) د. أحمد فؤاد الأهواني: المدارس الفلسفية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965م، ص ص77–78.

([40]) The Dictionary of Philosophy, op. cit., p.188, (Marcus Aurelius).

بوسيل أنه ليس لديه أدنى رغبة في أن يقلل من قيمة الصفات الشخصية لماركوس. وإن الدراسات المحسومة لا تستطيع أن تنقص من روعة هذا الرجل، بينما هناك دراسات منها ما يكرس فقط للبحث عن المزايا، ومنها ما تقوم بتخريب سمعته. أما بوسيل فهو يقدر ماركوس ويرى أنه يستحق الإجلال والاحترام، فبالرغم من مبادئه الفلسفية وحسّه الأخلاقي الرفيع، فقد أفسدت الرواقية تقريبًا الرومانيين الأكثر نبلاً. وبالطبع ساعدت على إحساسه بالكآبة في حياته وشعوره بالفشل والعجز، فهو لديه «كل مزايا المسيحية باستثناء البهجة»[41].

كانت مهمة ماركوس كإمبراطور عبئًا ثقيلاً عليه، فقد دوَّن تأملاته الفلسفية في خيمته أثناء أداء خدمات جليلة لشعبه، فلم يكتبها منعزلاً في قصره[42]، والشائع أنه لم يهدف نشرها، إنما كان هدفه الأساسي منها هو تحفيز نفسه على أداء واجبه بإتقان وأن يحيا حياة فاضلة هادئة، فهي مذكرات شخصية لوعظ ومواساة نفسه[43] كما هو واضح من العنوان الأصلي لها «إلى نفسي» وسُمِّيت بـ«التأملات» Meditation. والحق أن هذا المؤلَّف هام للغاية، إنه يعطينا صورة عفوية لإمبراطور كبير، رسمت بنفسه، وتنعكس لنا الطبيعة اللطيفة، النقيَّة، والنفس الكريمة الشهمة، وتنكشف كل الآراء والأفكار الراقية، واستسلامه القلبي التام للقضاء والقدر[44]، وقد عُرف ماركوس بأنه أول مؤلف لخواطره وحديثه لنفسه، وكانت إنجازاته السياسية معروفة أكثر من أفكاره الفلسفية[45] ربما لأنها

(41) F. W. Bussell, op. cit., p.185.

(42) دونالد ر. درلي: المرجع السابق، ص285.

(43) R. D. Hicks, Stoic and Epicurean, Charles Scribner's Sons, New York, 1910, p.113.

(44) William L. Davidson, the Stoic Creed, T & T. Clark, Edinburgh, London, 1907, p.30.

(45) E. Vernon Arnold, Roman Stoicism, p.405.

(ISSN: 2536 - 9555)

دونت في بداية الأمر كمذكرات شخصية للإمبراطور غير معلنة. ولم يُعرف مدى شغفه وحبه للحكمة إلا بعد ذيوعها، ولكن كان المعلن هو سلوكه الذي كان تطبيقًا لمبادئه الفلسفية، والذي كان وراء الإشادة بأخلاقه السمحة وإنسانيته.

ويشير برنارد إلى أن تأملات ماركوس إضافة بديهية إلى «محادثات» إبكتيتوس، ففي «المحادثات» علمنا الاستفسارات مع شروح وإيضاح لتعاليمه، وفي «التأملات» نقرأ النتيجة لهذه التعاليم في فكر باطني، وفي الحياة بأمانة وصدق وزهد لأحد تابعيه[46].

ففي تأملات ماركوس تبدو مساعيه المستمرة للحفاظ على نفسه نقيَّة غير ملوثة بالشرور والآثام[47]، وإذا أردنا أن نقدر قيمة إنجازات ماركوس على نحو صحيح، يجب أن ننتقل من النظر في الواجبات العامة للإمبراطور إلى النفس الداخلية للرجل، التي تبدو عارية أمامنا في تأملاته، ففيها تنكشف الذات، في حالة لم تحدث لأي إمبراطور آخر، فلدينا سجل لحياته وأفكاره والصراع النفسي له. وعندما ندقق في الآراء الفلسفية لأوريليوس سنجد عدم رضاه عن أدائه كحاكم أو كمصلح[48] نابعًا من رغبته في الوصول إلى أعلى درجات المهارة والإتقان في أداء واجباته بالإضافة إلى شعوره الشديد بالمسئولية التي أُلقيت على عاتقه، فقد كان يحث نفسه على دوام محاسبة النفس في نهاية كل يوم لتقييمها وتقويمها.

ويذكر بارو أن ماركوس أدى واجبه كإمبراطور بنجاح وضمير حي، وقد وصلت إلينا تأملاته بمحض الصدفة، وهو يؤكد ما ذهب إليه بوسيل في مسألة اختلاف النقاد بشأن ماركوس، فمنهم من يرى أن تأملاته من أعظم المؤلفات في العالم، بينما يرى آخرون أنها مجرد هذيان مرضي خرج من عقل مغرور كان يؤلم

(46) Edward Russell Bernard, Great moral Teachers,p.92.
(47) Henry Dwight Sedgwick, life of Marcus Aurelius, p.257.
(48) F. W. Bussell, Marcus Aurelius and the later Stoic, p.16.

نفسه بحيرته الباطنية[49]، ويرى تشارلز ورث أن ماركوس يُعد في تاريخ روما الطويل أوفر من تقلدوا المناصب العامة نشاطًا وأعظمهم إخلاصًا في العمل، ولكن مما يؤسف له أنه قد رجع إلى مبدأ الوراثة من جديد بأن ترك الحكم لابنه كمودوس الذي كان على النقيض تمامًا من شخصية أبيه الفيلسوف وميوله[50].

لم يكن ماركوس أوريليوس إمبراطورًا وقائدًا عسكريًا فقط؛ بل كان فيلسوفًا معبرًا بصدق عن حبه للحكمة، والجمع بين الفكر الفلسفي وتطبيقه، فلقد أبرز قدرة فائقة ومهارة في عمله، فقد كان ينظر إلى عمله كقائد وإمبراطور نظرة فلسفية بأنه امتثالٌ للواجب الوجودي والأخلاقي. فقد قال ثورو: «أن تكون فيلسوفًا لا يعني أن تكون لديك أفكار حاذقة، ولا حتى أن تؤسس مدرسة؛ بل أن تحب الحكمة بحيث تحيا وفقًا لإملاءاتها حياة ببساطة واستقلال وسماحة وصدق، أن تكون فيلسوفًا هو ألا تحل بعض مشكلات الحياة، حلاً نظريًا فقط، بل عمليًا أيضًا»[51]. ويذكر د. محمد علي أبو ريان أن للفلسفة معنيين: معنى عام عملي يجعل لفظة «فيلسوف» مرادفة لكلمة «حكيم» وهو ذلك الشخص الذي يتحمل الألم في شجاعة وصبر في سبيل المبادئ التي يعتنقها ويتصرف بحكمة واتزان في مواقف الحياة العامة، ومعنى آخر يشير إلى الشخص المحب للحقيقة الباحث عنها، بحثًا استدلاليًا، وتأملاً عميقًا، وارتفاعًا فوق مستوى الأحداث الجزئية إلى إدراك العلاقات الكامنة بين الأشياء في شمول وكلية بحيث يمكن الوصول في النهاية

(49) ر. هـ. بارو: الرومان، ترجمة: عبد الرازق يسري، مراجعة: د. سهير القلماوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1968م، ص163.

(50) أ. ب. تشارلز ورث: الإمبراطورية الرومانية، ترجمة: رمزي عبده جرجس، مراجعة: د. محمد صقر خفاجة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د. ت، ص14.

(51) نقلاً عن: د.عادل مصطفى: دراسته لكتاب ماركوس أوريليوس "التأملات"، ص18.

(ISSN: 2536 - 9555)

إلى المبادئ والعلل الأولى للوجود[52]، ونظرًا لأهمية الأخلاق بوجهيها النظري والعملي في العصر الروماني، كان شيشرون يريد أن يُقصر وصف «فيلسوف» على حكماء الرواقية فقط، إيمانًا منه بالمبدأ الرواقي القائل إن الفضيلة هي المرشد الأول للأخلاق[53].

وقد ذكر د. مراد وهبة أن لفظ فيلسوف قد أُطلق في القرن الثامن عشر على المدافعين عن التنوير والعقل والتسامح، والمعادين للمؤسسات الدينية القائمة مثل فولتير وروسو[54]، فقيمة الفلسفة ووصف فيلسوف مسألة نسبية تختلف من مناخ فكري لآخر. ومن عصر لعصر حسب أحداثه ومشكلاته. ولذلك قيل إن الفيلسوف مرآة لعصره، ومن ثم فإن ماركوس كان فيلسوفًا من طراز فريد فهو كإمبراطور مشهور ذو سلطة وقوة ونفوذ استطاع أن يكون مثالاً للفيلسوف الذي يحيا بمبادئه الفلسفية ذات الطابع الأخلاقي، فهو فيلسوف الواجب، وتأملاته التي دوَّنها هي تأملات تحثه على إتقان واجبه، وأن تكون حياته هي تنفيذ صادق ومشرف لما يدركه ويعيه عن دوره في الحياة.

3- **الأسس الفلسفية لمفهوم الواجب الأخلاقي عند ماركوس أوريليوس**:

كانت الرواقية على عكس الأبيقورية، مدرسة غير متجانسة، والاختلاف والتنوع في الفكر الرواقي مسألة مؤكدة وفقًا لما ذكره لونج، مشيرًا إلى أن المصادر لا تعكس خصوصيات مؤلفيها. فالعقلانية والمنفعة كانت الشيء المميز لشيشرون بالمقارنة مع سينيكا وإبكتيتوس وماركوس أوريليوس. وهذه الاختلافات هي أيضًا

([52]) د. محمد علي أبو ريان: الفلسفة أصولها ومبادئها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1978م، ص21.

([53]) د. أحمد عبد الرحيم أبو زيد: عن الصداقة لشيشرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994م، ص32.

([54]) د. مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ص540، مادة «فيلسوف».

سبب لحقيقة أن فلاسفة الرواقية كانوا مبدعين في الطريقة التي قدموا بها فلسفتهم. فقد أصرَّ كريسيبوس على أن الطبيعة العالمية وتنظيم الكون هما الطريقة الوحيدة الصحيحة لمقاربة الأخلاق. ولكن لا نسمع شيئًا من هذا عند بانيتوس، الذي كان المصدر الرئيسي لشيشرون في مؤلفه «الواجبات» De officiis. فالطبيعة الإنسانية وفقًا للفكر الرواقي المبكر أجزاء من طبيعة الكون، أما بانيتوس فقد قدم الأخلاق الرواقية كنظرية يمكن مقارنتها بسهولة مع الفلسفات الأخلاقية المنافسة؛ تتناول مسائل مثل كفاية الفضيلة للسعادة الكاملة، ويمكن للفلسفة الأخلاقية أن تُدرس كفرع مستقل بذاته قابل للانفصال عن الفلسفة الطبيعية والمنطق[55].

رغم أن الفكر الرواقي قام أساسًا على تصورهم للطبيعة، وهي طبيعة مادية تسير وفقًا لقوانين حتمية صارمة، والعالم هو نتيجة مباشرة لمحايثة الإله للعالم، فعلى جميع مستويات الوجود هناك وحدة وجودية بين الإله والعالم[56]، بحيث يمكن وصف الإله بأنه العقل الكلي(*) للعالم، وأن العالم هو جسده كالكائن العضوي له نفس وجسد بينهما وحدة معنوية كاملة قوامها اتحادهم في الجوهر،

(55) A. A. Long; "Stoicism in the Philosophical Tradition: Spinoza, Lipsius, Butler" Search in "Hellenistic and Early Modern Philosophy", edited by Jon Miller & Brad Inwood, Cambridge university, Cambridge, 2003, p.24.

(56) Anthony Preus, Historical Dictionary of Ancient Greek Philosophy, the Scarecrow press, London, 2007, p.78, (Courage). See Also: The Dictionary of philosophy, p.301, (Stoic School).

(*) يرتبط مفهوم العقل الكلي عند الرواقية بمفهومي القضاء والقدر، فالقدر هو العلة الأزلية الأبدية في وقوع الأشياء في الماضي والحاضر والمستقل، أما ما يسمى عند الرواقية بالقضاء فهو تتابعًا منظمًا للعلل، وارتباطًا يقوم بين كل علة وأخرى، وتفضي كل منها في ذاتها إلى معلول وتلك حقيقة أبدية أزلية. [انظر: شيشرون: علم الغيب في العالم القديم، ترجمه وشرحه وعلَّق عليه: د. توفيق الطويل، الناشر: مكتبة الآداب بالجماميز، القاهرة، د. ت، ص ص118، 119].

(ISSN: 2536 - 9555)

فكلاهما من مادة واحدة، هي النار. ونعلم أن فلسفة الطبيعة الرواقية مستوحاة من فلسفة الطبيعة عند هيراقليطس، وتم تطويرها وتطويعها لغايات أخلاقية عملية في الفكر الرواقي. فالطبيعة ذات العقل الكلي، جديرة بأن يحتذيها الإنسان ويعيش وفقًا لها، أي وفقًا للعقل "Logos" الذي تشمل عنايته مطلقة الخير الكون كله.

ويذكر ميللر أن الرواقي اعتقد أننا– أي الإنسان– لا نولد بالعقل، إنما نملك إمكانية أن نصبح عاقلين، ولو أننا نحيا ونموت بشكل طبيعي، سندرك هذه الإمكانية، بمجرد أن نكون عاقلين، ونحقق أهدافًا وغاياتٍ جديدة لأنفسنا، في حين قبل ذلك كان دافعنا الأساسي هو الحفاظ على الذات، أما الآن نحن نسعى إلى غرس عقلانيتنا. والطبيعة تحدد لنا أدوارنا والهدف من وجودنا[57]. ومن ثم فالحياة وفقًا للطبيعة، وهو من أشهر معتقدات الرواقية، كان يدل على تحقق وجودي ووسيلة الإنسان للتحرر من الأنفعالات والشعور بالسكينة.

فالعالم يسير بمقتضى قانون شامل، إذ يقول كليانتس «الإله العظيم، الذي له العديد من الأسماء، الملك سيد الطبيعة الكونية، جعل العالم في انسجام مع القانون»[58] وهذا القانون يسمى بعدة أسماء منها العقل، الإله، العدالة، القدر، المبدأ الأول، زيوس، لكن هذه المصطلحات هي مصطلحات مجازية، وسيكون من الخطأ الضغط لوضع معاني فلسفية لها. فهي تشير، في الواقع، إلى قانون التغير لا شيء أكثر من ذلك، ولا شك في أن استخدام هيراقليطس لمصطلح «لوجوس» كان واحدًا من النقاط الرئيسية في نظامه الفلسفي الذي جذب زينون متابع الكلبية. فقد أقرّ زينون بأن اللوجوس مبدأ جدلي وأخلاقي، واتخذ خطوة تقدمية، تمامًا مثلما أعطى أفلاطون تصور عام للوجود الميتافيزيقي بفكرته عن

(57) Jon Miller, Stoics, Grotius and Spinoza on moral Deliberation, in "Hellenistic and Early Modern Philosophy", p.117.

(58) Cleanthes; the Hymn, 5-10, p.6.

«المثال»، فمنذ انتستنس، واعتقاده بأن اللوجوس هو الفكر والواجب لتلك العلة المادية للوجود والحركة، واللوجوس عند الرواقية مثل اللوجوس عند هيراقليطس يأخذ العديد من الأسماء، وفي المرحلة المتأخرة للفكر الرواقي نجد أساسًا فكرة غائية الطبيعة، التي تعكس لنا وجود الأشياء كلها من تلقاء نفسها لغرض خير[59].

ومن خلال الأهمية المعطاة للطبيعة، يربط زينون تعاليمه الأخلاقية بالإله المبدع، الذي يتحد بالكون، علمًا بأن الدوافع الأولى للإنسان لا تميل إلى الفضيلة بل إلى الحفاظ على الذات، فالفضيلة مستحيلة في الطفل والقوة الغاشمة، لأنهما لا يمتلكان القوة المعرفية للعقل. فبالخضوع للعقل تتحقق السعادة التي يمكن وصفها بأنها تدفق هادئ للحياة[60]، وتُعد الفضيلة شرطًا ضروريًا للسعادة؛ لأن الفضيلة هي كمال طبيعة الإنسان العقلانية، والسعادة تكمن في التكيف مع الطبيعة الكونية. وبالتالي لا شيء إلا السعادة يساوي الفضيلة الأخلاقية، التي تعتبر رغبة عقلانية عند الكائنات ذات الطبيعة الحرة التي تتميز بقدرتها على فهم تسلسل الأحداث وفقًا لمبدأ السببية الحتمية، وهذا النمط من التفكير نجده لدى الرواقية المبكرة والمتأخرة[61].

وقد حاول إبكتيتوس توضيح الفكرة الرواقية عن «الحياة وفقًا للطبيعة» بالإجابة عن تساؤله: كيف يقال عن بعض الأشياء الخارجية أنها تتفق مع الطبيعة، وغيرها لا تتفق معها؟ وأجاب إبكتيتوس بأن الأشياء التي يقال عنها إنها لا تتفق مع الطبيعة أو تتعارض معها، هي أشياء انفصلت عن الاتحاد بالمجتمع بل بالأحرى بالكل، ويعطي مثالًا على ذلك بالقدم إذا نُظر إليها كشيء مستقل، فيجب

(59) Zeno and Cleanthes, the Fragments, (Introduction), p.22.
(60) Ibid., p.14.
(61) A. A. Long, op. cit., p.25.

(ISSN: 2536 - 9555)

أن تكون نظيفة وسليمة. ولكن إذا نُظر إليها في ارتباطها بالجسم، فإنه سيكون من المفترض أن تخطو على الطين وعلى الشوك. وأحيانًا أن تُقطع لصالح الجسم كله. وإلا فإنه لم يعد قدمًا. ويجب على أفراد المجتمع أن ينظروا لبعضهم البعض بهذه الطريقة، فالرجل من المفترض مع تقدم العمر يكون أكثر صحة وغنى إذا نُظر إليه مستقلاً، أما إذا نُظر إليه كجزء من كل، يجب أن يكون مريضًا في وقت ما، ويتعرض للخطر في وقت آخر، وفي بعض الحالات يموت شابًا. فالقدم لم يعد قدمًا إذا كان منفصلًا عن الجسم، وكذلك الرجل لم يعد رجلاً إذا كان منفصلاً عن الكل، فالرجل جزء من الدولة، والدولة صورة مصغرة للدولة العالمية، فيجب أن يكون هناك تعدد في الأدوار، رجل يحال إلى المحكمة وآخر يصاب بحمى، وآخر يموت، وآخر مُدان لأنه من المستحيل في مثل هذا الكون، وبين كل هؤلاء الناس لا يحدث مثل هذه الأحداث، فيجب أن يقوم كل شخص بدوره طوعًا[62]. فيتحقق الواجب بفعل ما هو مناسب للطبيعة. ويتمسك الرواقي بالفضيلة من أجل الواجب لا اللذة[63]. ولا يفعل الرواقي ما هو خير لأنه كذلك فحسب، بل لأنه يُطيع الإله، فقد اعتقد أن الحياة الفاضلة، والخير الأسمى، يعادل حياة تحيا دائمًا لتقوم بالواجب، الواجب في ذاته[64]. ونجد في شرح إبكتيتوس للقيمة الوظيفية للقدم أو غيره من الأعضاء في حالة ارتباطه بالبدن، تأثره بالنظرية الوظيفية عند

(62) Epictetus; Discourses with the Encheiridion of Epictetus, and A View of his Philosophy, George Long, George Bell and Sons, London, 1800, B.II, Ch. V, pp.111.112.

(63) John M. Cooper, Pursuit of Wisdom, Six ways of life in Ancient Philosophy from Socrates to Plotinus, Princeton university press, Oxford, 2012, p.203.

(64) Zeno and Cleanthes, op. cit., p.187.

أرسطو، فالشيء يُعرف بوظائفه أو بالأحرى يستمد الشيء قيمته من أدائه لوظيفته.

ومن الأفكار المتميزة التي قدمتها الفلسفة الرواقية، فكرة أن الأخلاق وعلى رأسها الواجب تتجاوز الحدود الطبقية والوطنية، فالعالمية الرواقية تمثل تقدمًا في موضوع المساواة بالطبيعة في الحقوق والواجبات بين البشر. بعد أن كان التمييز الطبقي والعنصري واضحًا في العصر الهليني في فلسفة كل من أفلاطون وأرسطو بتأكيدهما على الطبقية في المجتمع وعدم المساواة بين البشر سواء بالطبيعة أو النسب.

وتُعد مشكلة الحرية الإنسانية في الفكر الرواقي من أصعب مشكلات الفلسفة الأخلاقية، في ظل اعتقادهم في الحتمية الطبيعية، فإذا كان كل ما يصدر عن الإنسان إنما يصدر بصورة قدرية أو جبرية، ألا تكون للالتزامات التي يفرضها الواجب طابع تعسفي جبري؟! فقد أدرك أعلام الفكر الرواقي هذه المشكلة، وحاول كريسيبوس إزالة هذا التعارض الواضح بين الجبرية والحرية في فكرهم من خلال تميزه بين العلة الخارجية الأولية والتي تتقدم الفعل مباشرة، وتكون جزءًا من السلسلة اللامتناهية للعلة والمعلول، وبين العلة الداخلية الأكثر أهمية، والتي تشكل طبيعة الشيء. فإذا كانت العلة الخارجية للفعل تربطه بالسلسلة الجبرية، فإنه من داخل طبيعته يمكنه اتخاذ قرارات خاصة به نابعة من الإرادة، وبناءً عليها يتحدد ما له من فضيلة أو رذيلة[65]، أي أن الرواقي إذا عاش حياته راضيًا مطيعًا لقوانين الطبيعة فهو حر بإرادته التي استوعبت وعملت عن فهم، أما إذا لم يرض فهو في نظرهم تعس ومخالف لقوانين الطبيعة وخارج عليها، ولذلك فهو يقوم بدوره أو واجبه بإكراه أو بالأحرى بالجبر، ومن ثم كانت النية من المفاهيم الهامة في

([65])The Concise Encyclopedia of Western Philosophy, p.370, (Stoicism).

(ISSN: 2536 - 9555)

الفلسفة الأخلاقية الرواقية والتي أكد عليها ماركوس في تأملاته، فالنيَّة هي شعور داخلي لا يعلمه إلا الشخص ذاته يعبر عن رغبة صادقة لفعل شيء ما مقصود أو عدم الرغبة في فعله، فتدل النية على القصد والأرادة الإنسانية وهي مؤشر داخلي حقيقي لصلاح النفس أو فسادها.

ولكن هيجل لم يقتنع بأي محاولة لحل مشكلة الحرية الرواقية قائلاً: «إن الرواقي لا يملك أي حرية حقيقية للاستمتاع بالحياة في عالم الواقع، لأن الرواقي عبد للقوانين الضرورية التي تحكم الطبيعة والحياة الإنسانية. ويكتفي الرواقي باللجوء إلى فكرة مجردة عن نفسه تفيد بأنه حر»[66].

ولكن إذا تأملنا طبيعتنا وطبيعة الكون وغيره من المؤثرات سواء الحضارية أو الاجتماعية أو الثقافية أو البيئية... إلخ، سنجد أنه من المستحيل القول أن الإنسان يتمتع بحرية مطلقة، بل أنه يتمتع بحرية محدودة بحدود متعددة، وتختلف من شخص لآخر، نذكر على سبيل المثال القدرات البدنية والعقلية، والدين، والثقافة، والطبيعة، ومعنى ذلك أن الإنسان ليس حرًا بشكل مطلق، كما أنه ليس مجبرًا بشكل مطلق، فلديه القدرة على الاختيار ولديه إرادة حرة ولكن لها نطاق محدد، فالقول بالحرية المطلقة يلغي الحتمية التي قام عليها العلم ويؤيدها، والقول بالحتمية المطلقة يلغي الحرية والمسئولية الأخلاقية وهكذا، والواقع يدفعنا للاعتقاد بأن لكل منهما نطاقه، فقد يبدو الإنسان في كثير من الحالات وكأنه دمية تحركها خيوط متعددة، قد تعود في النهاية لمرجعية واحدة، وإذا نظرنا إلى مشكلة الحرية من منظور ديني سنجد أن الإنسان قد يفعل فعل ما يكرهه لأنه يخاف العقاب، فيكون بطاعته مجبرًا، وأحيانًا يكون راضيًا عن فعله فيكون بطاعته حرًّا، ولذلك

([66]) ت. ز. لافين: البحث الفلسفي من سقراط إلى سارتر، ترجمة: أشرف محمد كيلاني، مراجعة وتقديم: د.سعيد توفيق، المركز القومي للترجمة، ط(1)، القاهرة، 2012م، ص261.

يكون الإنسان حرًّا في أفعاله إذا كان اختياره للفعل عن اقتناع وحب في الفضيلة وإرضاء لله. ولذلك كانت النيَّة هي تعبير عن مدى فضيلة الإنسان أكثر من سلوكه. وهذا المفهوم هو ما اقتربت منه الرواقية.

ويرى د. عبد الرحمن بدوي أن التعارض بين الجبرية والحرية في الفلسفة الرواقية مسألة وهمية؛ لأن الحكيم الرواقي هو من يعي قوانين الطبيعة ويهيئ نفسه للعمل وفقًا لها، دون الانشغال بمدى تأثيرها، ولذلك أنكر الرواقيون على كثير ممن كانوا فضلاء فضيلتهم لأنهم لم يقصدوا ما فعلوه، ولذلك ميَّزوا بين أخلاق نظرية، وأخلاق عملية. الأخلاق النظرية هي التي تحقق الفضيلة على صورتها العليا، بأن يعرف الإنسان قوانين الطبيعة وأن يلائم بينها وبين حالته النفسية. أما الأخلاق العملية فهي الأفعال التي تقرِّب الإنسان من المثال الأعلى للفضيلة[67].

وقد صنَّف زينون الناس إلى فئتين مختلفتين تمامًا، الحكيم والأحمق، كل أعمال الحكيم تتسم بالفضيلة، وكل أعمال الأحمق توصف بالرذيلة. فالحكيم الرواقي وحده لا يخطئ أبدًا، ولا يأسف على ما فعله، ولا يشعر بالشفقة، ومجرد من العاطفة. ويمكن للإنسان أن يرتقي من حالة الحماقة إلى الحكمة بالتطهر الروحي من الانفعالات بقوة العقل[68]، فعلى الرواقي أن يتخلص من الانفعالات ويتحكم بذاته، وأن يرى كل ما يحدث في الحياة خير، ولكن أين السعادة والخير في المرض والفقر والعجز مثلاً؟ فتجيب الرواقية بمفهوم الواجب، فالكون كالكائن الحي يقوم كل عضو فيه بدوره، وكأنه أوركسترا يعزف أعضاؤه لحن الوجود، فالسعادة والخير في أداء الواجب، فقد كان مفهوم الواجب من المفاهيم الجوهرية

([67]) د. عبد الرحمن بدوي: خريف الفكر اليوناني، مكتبة النهضة المصرية، ط(4)، القاهرة، 1970م، ص ص42-43.

([68]) Zeno and Cleanthes, op. cit., p.16. See also: Gilbert Murray, the Stoic Philosophy, p.42.

(ISSN: 2536 - 9555)

في الفكر الرواقي، استخدم كعلاج فلسفي للإنسان في العصر الروماني، فإذا استطاع الإنسان تحمل المشقة وأداء دوره دون تمرد أو تكاسل، يستفيد المجتمع بفرد إيجابي متعاون.

لقد كانت الرواقية تدافع عن مبدأ الحرية، رغم قولها بالحتمية الطبيعية، فالإنسان في نظرهم لديه إرادة حرة في أن يفعل أو لا يفعل، فأداء الرواقي لواجبه هو عمل نابع من إرادته ولذلك يجني ثمرة ذلك، وهو شعوره بالسعادة والسكينة التي تكون بفضيلة الحياة وفقًا للطبيعة، وهذا واجب على كل إنسان لتحقيق وجوده. فالواجب وجودي وأخلاقي.

وقد اختلفت آراء المفكرين في تفسير مشكلة الحرية الرواقية، فقد انقسموا إلى فريقين: أحدهما مؤيد لفكرة الحرية لديهم، وآخر معارض لها وينفيها. فإن الرواقية رغم قولها بالحتمية إلا أنها لم تحرم الإنسان شعوره بالحرية في اختياراته. فقد لاحظت الرواقية أن من يخرج عن طبيعته يهلك. والواقع أن لكل نوع من أنواع الكائنات الحية خواصه وطبيعته، وكذلك أفراد النوع الواحد. فإذا اختلت طبيعته أو بيئته فسد، ففي عالم الإنسان تجتمع الحتمية الطبيعية والحرية الإنسانية، فالإنسان بقوة عقله حرٌّ في تفكيره ولكنه مقيَّد بقوانين وجودية، وبالتالي فالحرية محدودة وليست مطلقة، وقد يكون الإنسان أحيانًا حرًّا في سلوكه، وأحيانًا أخرى مجبرًا، وقد يكون هو مصدر الجبر فيكون مجبر ذاتيًا وهي حالة تجمع بين الحرية والجبرية. وبالتالي فيمكن التمييز بين نوعين للجبر؛ جبر خارجي وجبر ذاتي.

يتضح مما سبق الأسس الفلسفية لتأملات ماركوس أوريليوس، التي كان لها دور كبير في تشكيل فكره ومفهومه للواجب الأخلاقي، وما تميَّز به ماركوس ليس فقط استيعابه للفكر الرواقي وتطويره، وإنما تطبيقه أيضًا، وسنرى كيف كان مفهومه للواجب الأخلاقي دافعًا لسلوكه الأخلاقي الراقي، حيث لا فرق بين البشر إلا بالفضيلة.

4- تصور ماركوس لطبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع :

لقد عاش ماركوس حياة بسيطة عامرة بالعمل والإحسان، وقد جعلت نفسه شديدة الحساسية ينظر إلى الحياة كموضوع واجب أخلاقي واجتماعي، ولم يكن يهدف من قيامه بواجباته الوصول إلى السعادة أو المنفعة أو الشهرة، وإنما كان هدفه هو مساعدة الآخرين والتعاطف معهم بحيث يمكننا القول أن شعاره كان الواجب من أجل الواجب ذاته[69]. فنفسه متوجهة بالمشاعر التي تجمع بين العطف والود[70] وتميل للشك لتكشف عن الغرور الكامن خلف كل مظاهر الحياة، والسعي إلى كل ما يجعل العالم يبدو معقولاً وواضحًا أمامه[71]، وقد أدرك ماركوس قيمة الفرد وأهمية دوره في المجتمع، فالفرد لكي يكون مستنيرًا ومفيدًا في مجتمعه لا بد أن يتسلح بكل الوسائل التي تُعينه على ذلك؛ كالثقافة، والمعرفة بالمبادئ الأخلاقية، وانتقاء الجيد من الصفات وخبرات الناجحين من المحيطين به، وإتقان العمل واحترام الآخر والتعاون، ومعالجة الأمور بحكمة. فقد ذكر ماركوس في بداية تأملاته أنه تعلَّم من أقاربه وأصدقائه وأساتذته صفات ومبادئ ومفاهيم منها ما هو أخلاقي، وسياسي، واجتماعي، ... إلخ. فمثلاً تعلَّم من أخيه حب العدل وإعلاء كلمة الحق، وإدراك قيمة المجتمع القائم على الاحترام والمساواة وحرية التعبير[72].

وقد أكد ماركوس على قيمة الفلسفة في حياة الإنسان، فهي التي تدفعه إلى عمل الخير، وتجعله مدرك لقيمة الحياة وحقيقتها. وقد ذكر ماركوس إنه تعلم من الإسكندر الأفلاطوني قيمة الشعور بالآخرين ومساعدتهم، فالواجب الأخلاقي والاجتماعي التزام، فلا يتنصل الإنسان منه، أو يتأخر في آداؤه بعذر غير

---

(69) Henry Dwight Sedgwick, Marcus Aurelius, p.111.

(70) F. W. Bussell, Marcus Aurelius and the later Stoic, p.34.

(71) Henry Dwight Sedgwick, op. cit., p.111.

(72) ماركوس أوريليوس: التأملات، (1-14)، ص34.

(ISSN: 2536 - 9555)

حقيقي، ويقول ماركوس في ذلك: «ألا أنتحل أعذاراً قهرية للتنصل من واجباتي تجاه إخواني وتجاه من أعيش معهم»[73]، بل يجب أن يكون الفرد إيجابيًا في أفعاله محبًا لمجتمعه، ومتعاونًا مع رفاقه وذلك وفقًا لما قاله ماركوس: « سأضع نصب عيني خير عشيرتي وأوجه كل سعيي للصالح العام وأصرفه عما دون ذلك. وإذا ما تم ذلك فإن الحياة سوف تسير سيراً حسناً، مثلما ترى أن حياة مواطن ما تسير سيراً حسناً عندما يواصل سعياً فيه مصلحة لرفاقه من المواطنين ويرضى بكل ماتخصصه له مدينته»[74]، فقد أعتقد ماركوس أن نهضة المجتمع وتقدمه تتحقق إذا قام كل فرد في المجتمع بواجبه، وتآزر وتعاون الجميع.

وقد حرص ماركوس على التحلي بالصفات الأخلاقية الرفيعة التي تُعد من ضروريات نجاح العلاقات الإنسانية في المجتمع. ومن هذه الصفات أن يكون الإنسان «صالحًا»، «متواضعًا»، «صادقًا»، «عقلانيًا»، «متزنًا»،«شهمًا»، ولكل من هذه الصفات معنى خاص عند ماركوس، فقد قصد من صفة «عقلاني» الانتباه للتفاصيل والفكر النشط، أما «الاتزان» فهو عنده القبول الطوعي لما قسمته الطبيعة للإنسان، وقصد بـ«الشهامة» علو التفكير عن مؤثرات البدن سواء السارة أو المؤلمة. واعتقد ماركوس أنه إذا اتصف بهذه الصفات وتمسك بدوامها يكون إنسانًا مميزًا يحيا حياة جديدة، كما لو كان في فردوس أو «جزر السعداء»[75]. فماركوس يُشبّه من اتصفوا بالصفات الأخلاقية الحميدة وحافظوا عليها بقاطني جزر السعداء ينعمون بحياة هانئة سعيدة. ونجد هنا تأثر ماركوس بالتراث الديني اليوناني القديم، فقد خُصصت جزر السعداء في الأساطير اليونانية القديمة للأبطال والأرواح الفاضلة. تنعم كل منهما بالراحة والسرور جزاءً لما

([73]) نفس المصدر، (1–12)، ص33.

([74]) نفس المصدر، (10–6)، ص201.

([75]) نفس المصدر، (10–8)، ص203.

حققته في حياتها الأولى. وقد انشغل ماركوس بالتفكير في الأسلوب الأمثل للتعامل مع إخوانه المواطنين، وقد أدرك قيمة التسامح والرفق حتى مع الأشرار وقُساة القلوب، فرأى أن للرفق تأثيرًا فعالاً لا يُقهر، بشرط أن يكون أصيلاً لا تُصنع فيه. فعلى الإنسان أن ينصح حتى من يؤذيه. لأنه لا يفعل ذلك إلا عن جهل وعدم إدراك للحقيقة، وفي ذلك قال ماركوس: «لا يا بني إنما خُلقنا لغايات أخرى غير هذا، لا سبيل إلى أن تصيبني بأذى، فما تؤذي إلا نفسك يا ولدي»[76]. وقد تميَّز ماركوس بنزعته الإنسانية وتأكيده على فكرة التسامح والسلام النفسي الذي ينعكس في التعامل مع الآخرين.

والحق أن أي مجتمع بحاجة إلى كل فرد إيجابي يفكر ويعمل كذلك، فبصلاح الأفراد ينصلح المجتمع. فالمستنير عليه أن يكون قدوة وأن ينصح غيره ممَّن جهل أساليب اللياقة والخير نصحًا طيبًا لا تكلُّف ولا تكبُّر فيه. فماركوس يؤكد على قيمة الدور الذي يقوم به الحكيم في مجتمعه، مثلما اعتقد أفلاطون قبل ذلك في فاعلية الدور الذي يقوم به العارف، بأن يرشد غيره إلى المعرفة الحقيقية، وأن يكشف عن وهمية وفناء الحياة الأرضية في مقابل حياة أخرى سرمدية مثالية تستحق المجاهدة والعناء للوصول إليها، فيتحقق الخلاص. فالعارف الأفلاطوني وجد أن من واجبه الرجوع للكهف بعد أن تحرر منه ليساعد رفاقه للتخلص من الجهل.

وقد كان ماركوس على اقتناع بأن النموذج الأمثل للحكم هو الملك الفيلسوف[77]، ولكنه لم يطمح لـ«يوتوبيا» أفلاطون، ولكنه اقتنع بما يمكنه تحقيقه[78]، وقد كانت الطريقة التي توالت بها الأحداث وسلوك الانضباط في

([76]) نفس المصدر، (11–18)، تاسعًا، ص230.

([77]) Anthony Preus, historical Dictionary of Ancient Greek Philosophy, p.116.

([78]) ماركوس أوريليوس: المصدر السابق، (9–29)، ص189.

(ISSN: 2536 - 9555)

تطبيق ماركوس لمبادئه، جعلته متميزًا على كل فلاسفة المذهب الرواقي[79] فقد كان حريصًا على تطبيق مبادئه قائلاً: «واجبك أن تجمع بين النظر والعمل»[80].

ويذكر ريكس وورنر أن ماركوس كان مغاليًا في تطبيق المبادئ الرواقية الأخلاقية الصارمة، فعلى حين ذهب الحكيم الرواقي إلى أن الرفاهيات ومظاهر النِعم المادية لا قيمة لها، فإن ماركوس كان يعتبرها سيئة، ويريد التخلي عنها نهائيًا، فقد كان أكثر تعسفًا مما هو مطلوب من الحكيم الرواقي أن يكون عليه[81]، فلم ير ماركوس في مظاهر الترف والرفاهيات شيئًا إنسانيًا، فقد كان اهتمامه يوجه لجوهر الإنسان، وما به يكون الإنسان إنسانًا، وقد عبَّر عن ذلك بقوله: «لا شيء من هذه الأشياء ينبغي أن يسمى «إنسانيًا» تلك التي لا تنتمي للإنسان بما هو إنسان»[82]. لقد كان ماركوس عمليًا وإيجابيًا وأخلاقيًا في سلوكه، ويدرك قيمة التعاون المجتمعي. وكانت إشارته إلى ضرورة التسلح بالوسائل والمهارات اللازمة لأداء الفرد لواجبه، دليلاً على رؤية شاملة لفكرة الواجب وضرورة انتقالها إلى حيز الفعل.

5- **الواجب الأخلاقي كغاية قصوى عند ماركوس أوريليوس**:

لقد تصوَّر ماركوس أن الواجب فطري في الإنسان، أي أنه وُجد بالطبيعة، وأن الإنسان خُلق ولديه القدرة على تحمل أي شيء يراه من مصلحته، أو من واجبه أن يفعله[83]، ويرجع تقييم ذلك إلى النفس التي تدير وتحرك ذاتها، وتختار ما تراه ملائمًا لها[84].

([79]) R. D. Hicks, Stoic and Epicurean, p.49.

([80]) ماركوس أوريليوس: المصدر السابق، (10–9)، ص204.

([81]) ريكس وورنر: فلاسفة الإغريق، ص226.

([82]) ماركوس أوريليوس: المصدر السابق، (5–15)، ص101.

([83]) نفس المصدر، (10–3)، ص205.

([84]) نفس المصدر، (5–19)، ص104.

ويشير ماركوس إلى أهمية التأمل العقلي للعالم قائلاً: «اتخذ طريقة منهجية لترى كيف تتحول الأشياء جميعًا الواحد منها إلى الآخر. فلا شيء أقدر من ذلك على السمو بالعقل... فيتبين- للإنسان- أنه... لا بد تارك كل هذا وراءه وراحل من عالم البشر. ويكرس نفسه تمامًا للعدل في أفعاله، ويذعن لطبيعة العالم في كل شيء يحدث»[85]. فالتأمل العقلي في حقيقة العالم ومبدئه يسمو بالإنسان ويجعله يدرك الخير والعدل، ويحرص على السلوك السليم وفقًا للقانون، وأن يطبق مبادئه الأخلاقية دون النظر في سلبيات المحيطين به، وما قد يدبرونه له من مكائد.

إن الطبيعة التي تحدَّث عنها ماركوس هي الطبيعة المادية الميكانيكية الإلهية، هي مجموع التغيرات، هي الكون النشط الذي يوجد من تضاد العناصر وتحولاتها، فالطبيعة في الفكر الرواقي لا تتوقف، هي دائمًا قائمة، تتعاقب فيها كل الأشياء للأبد بهدف الحفاظ على استمرارية العالم على ما هو عليه، فهي تبدو لهم كعناية الأم[86]. فقد كان ماركوس يقدس الطبيعة بشكل تام، ويبدو تأثير ذلك على سلوكه النابع من ضمير يقظ، دون أن يسمح لأي شيء أن يعطله أو يقلل من حماسه.

وقد أكد ماركوس على أهمية احترام القانون وتطبيقه، فالواجب لا بد أن يكون وفقًا للقانون. وقد ينفعل شخص ما ويقوم بأعمال عنف وتخريب لأنه يطالب بأمور يعتقد أنها حقه، ولكن ماركوس يرى هذا الشخص لا يحترم ذاته، ولا يشعر بالواجب سواء بفعله ذلك أو بفعل أي شيء آخر غير قانوني، وإذا كانت الرحمة من الصفات التي يجب أن يتصف بها الإنسان، لكن دون مخالفة القانون والعدالة[87]، ومن أهم المعتقدات التي وجدت تعبيرًا لها في القانون الروماني،

([85]) نفس المصدر، (10-11)، ص ص205-206.

([86]) Henry Dwight Sedgwick, op. cit., p.112.

([87]) Ibid., p.173.

(ISSN: 2536 - 9555)

والتي استخدمت كبنود ليس فقط للقانون ولكن للأخلاق أيضًا، هي أولاً: الطبيعة مصدر للقانون الكوني، ثانيًا: العقل مبدأ جوهري للطبيعة، ثالثًا: كل الناس يشاركون في العقل، وهم فيه متساوون، رابعًا: العدالة هي تطبيق الحكومة للقانون، خامسًا: الالتزام بالواجب(88). وهذا يدل على تغلغل الفلسفة الرواقية في السياسة الرومانية القديمة واتخاذ مبادئها الفلسفية أساسًا لسن قوانين وعونًا في الحكم الإمبراطوري كما نرى عند ماركوس.

ففي الرواقية الرومانية أصبحت الرواقية فلسفة عملية، فلم تكن هناك حاجة إلى الحفاظ على الأطروحات النظرية للرواقية عندما انتهت الرواقية كقوة نظرية، وقد نجا من هذا المصير كل من سينيكا وإبكتيتوس وماركوس أوريليوس، وربما يرجع ذلك إلى عدة عوامل، منها علاقات سينيكا مع القديس بول، ووضع ماركوس كإمبراطور، ولكن في المقام الأول طبيعة كتاباتهم التي كان ينظر إليها على أنها تلبية لحاجة أخلاقية عملية(89)، ويعد المجهود الإيثاري الذي بذله ماركوس لحماية الإمبراطورية الرومانية خير دليل على إمكانية الانتقال من النظرية إلى التطبيق فقد كان في تطبيقه لمبادئه أفضل من مذهبه الرواقي، لأنه حوَّل القدر إلى قدرة إيجابية بعناية فائقة وتميُّز واضح(90).

فقد اعتقد ماركوس أن الإنسان قادر بالطبيعة على أداء واجبه إذا ما أدرك ما ينبغي عليه فعله. أما إذا أخفق في التوصل إلى طريقه السليم فعليه أن يلجأ إلى مشورة الآخرين وخاصةً من يثق في نصحهم، أو أن يعمل بقدر علمه مع مراعاة

(88) John Dewey and James H. Tufts, Ethics, Henry Holt and Company, New York, 1932, p.173.

(89) Keimpe Algra, Jonathan Barnes, Jaap Mansfeld, Malcolm Schofield, the Cambridge History of Hellenistic Philosophy, Cambridge university press, Cambridge, p.78.

(90) F. W. Bussell, Marcus Aurlius and the later Stoics, p.33.

الالتزام بالعدل، وذلك وفقًا لقوله: «فيم التوجس والشك إذا كان بوسعك أن تبحث وتدرك ما ينبغي فعله،... إذا كنت لا تتبين الطريق فتوقف وخُذ مشورة أفضل ناصحيك... فإن لم يتوفر ذلك فامضِ وفق قدراتك الحالية ولكن بتروٍ واجب، ملتزمًا دائمًا بما يبدو لك عدلاً...»[91].

أكد ماركوس على أهمية تطبيق العدل، فبه تستقيم الحياة في الإمبراطورية، فالعدالة على جميع أصعدتها مطلب أساسي وجوهري، يجب على كل إنسان الالتزام به سواء مع نفسه أو مع الآخرين. وواجب الإنسان الاجتهاد في عمله والحفاظ على صحته ليمكنه ذلك، وعندما تنتهي رسالة الإنسان الذي وُجد في الحياة من أجلها، عليه أن يرحب بالموت كوظيفة طبيعية، فالموت ليس شرًّا في حد ذاته، بل أنه لخير الطبيعة فمنظومة الكون محكومة بقانون عادل يتحقق به الانسجام الكوني. ففكرة الموت سواء بشكل طبيعي أو بالانتحار لا تزعج ماركوس، فنجده يقول: «فالحق أقول لكم، إخواني الآثينيين، أينما كان الموقع الذي اتخذه امرؤ، سواء رآه الأفضل له أو حدده له قائد، هنالك يتوجب عليه فيما أرى، أن يثبت ويصمد للمخاطر، لا يقيم وزنًا للموت، ولا لغيره بالقياس إلى عار التخلي عن موقعه»[92] فأداء الواجب عند ماركوس أهم من الحفاظ على الحياة، لأن الحياة بلا واجب لا قيمة لها عنده، وخاصةً الواجب العسكري المنوط به حماية الوطن، فعلى الجندي الصمود في ميدان المعركة وطاعة قائده مهما كلَّفه ذلك.

([91]) ماركوس أوريليوس، المصدر السابق، (10-12)، ص206.

([92]) نفس المصدر، (7-45)، ص146؛ وأيضًا: (10-18)، ص207؛ وأيضًا: (2-12)، ص ص49، 50. انظر أيضًا:

Paul Barron Watson; Marcus Aurelius Antoninus, Harper & Brothers, New York, 1884, pp.247, 248.

(ISSN: 2536 - 9555)

ويلاحظ في النص السابق مخاطبة ماركوس للآثينيين، فماذا يعني ذلك؟ أكان ينوي نشر خواطره وتكون أفكاره للعامة، أم تخيَّل أنه يخاطب الآثينيين؟ فإذا صح أنه كان ينوي ذيوعها، فيستدعي ذلك إعادة النظر للتأملات وفقًا لذلك، فشتان بين أفكار يخاطب بها الإنسان نفسه فقط، فتكون عفوية جدًا، وبين أفكار يخاطب بها العامة، وعلى جانب آخر يعكس النص مشاعر فياضة من الود والإحسان والأخوة، والمسئولية تجاه شعبه ومواطنيه.

وقد ركز ماركوس على أهمية التعاون بين المواطنين، فالغاية القصوى هي أداء الواجب حتى لو كانت بمساعدة آخرين، فلا يجب أن يستحي المرء من طلب المساعدة، خاصةً إذا كان أداء الواجب بمهارة يقتضي ذلك. كالجندي الأعرج الذي يريد تسلق الأسوار ويحتاج إلى من يعاونه في ذلك[93] حيث إن الكائنات العاقلة كأعضاء الجسد الواحد يوجدون لغاية ويتعاونون في إنجازها. وقد قال ماركوس في ذلك: «كل الأشياء متشابكة ومترابطة برباط مقدس،... كل الأشياء تُرتب جانبًا إلى جنب، وتتعاون في تحقيق الهدف الكوني، لأن الكون واحد،... والإله واحد يتغلغل كل شيء، وجوهر واحد وقانون واحد وسبب واحد، وكل واحد لكل الكائنات العاقلة»[94]. وهنا ينطلق ماركوس من أرضية رواقية طورها بما يتفق مع اتجاهاته الفكرية والعملية. ويتضح من ذلك كيف يمكن أن تكون فلسفة الطبيعة الرواقية هي الأساس والمنطلق للفكر الأخلاقي والسياسي لفلاسفتها.

ويبدو أن تحمل ماركوس أعباء الحكم ومواجهة متاعبه، له أساس فلسفي والتزام ديني، فقد اعتقد ماركوس أنه مواطن عليه واجب في دولة عالمية، يحكمها قانون مقدس. فالمسألة عنده مسألة طاعة أو معصية للقانون سيد العالم الذي

(93) Marcus Aurelius Antoninus, the Communings with himself, A Revised Text and a Translated into English by C. R. Haines, the Loeb Classical Library, edited by, E. Capps, T. E. page, W. H. D., Rouse, William Heinemann, London, 1915, (VII -7), p.167.

(94) Ibid., (VII- 9), p.169.

يوجهه إلى ما يفعله أو لا يفعله، فهو لا يملك تغير مسار حياته الذي قُدر عليه، وليس عليه إلا الطاعة لينال حريته. ونجده يقول: «إذا كانت القدرة الفكرية عامة لنا جميعًا، والعقل أيضًا عامًا، وهو الذي يجعلنا مخلوقات عاقلة، وإذا كان العقل يخبرنا بما نفعل أو لا نفعل هو أيضًا عام، وإذا كان القانون أيضًا عامًا، ونحن جميعًا مواطنون. فإننا أعضاء في مجتمع منظم، والعالم هو دولة واحدة...»[95]. يريد ماركوس تذكير نفسه بقوة الترابط بين جميع المواطنين في العالم، وأنهم تحت إدارة عقلية واحدة، لذلك يسود العالم نظام محكم، يتعيَّن فيه على كل مواطن أداء دوره المنوط به والحفاظ على توافقه معه والخضوع الكامل لقواعده. فالواجب لا يخرج عن حدود القدرات الإنسانية التي كفلتها الطبيعة لهم «... ما تلك الفضيلة التي وهبتها الطبيعة للإنسان كرقيقة للتعامل مع الاعتداء؟ كترياق لمواجهة فاعل الشر، فقد أعطت الفضيلة اللطف... وعلى أية حال بوسعك تعليم من ضلَّ الطريق...»[96]. فالخير هو الأصل في الطبيعة الإنسانية عند ماركوس، ويجب على أفراد المجتمع العالمي التعامل بإيجابية، فإذا رأى الفرد منكرًا فيحاول إصلاحه بلطف على اعتبار أن الشرير هو من ضلَّ هدفه الحقيقي وغايته القصوى.

يسعى الإنسان في تصور ماركوس إلى الالتزام بالواجب باتباع الطبيعة وممارسة الفضيلة ليحصل على حريته، فالواجب الأخلاقي عند المذهب الرواقي عامة، وماركوس خاصة، يعبِّر عن جدلية العلاقة بين العبودية والحرية، ويتضح ذلك في اعتقاد ماركوس بأن الحرية الحقيقية هي بالعبودية المخلصة للإله أو العقل أو القانون، كلها كلمات تدل على شيء واحد عندهم، ويتساءل ماركوس إذا كانت الآلهة لديهم القوة، فلماذا لا يصلي لهم الإنسان لتمنحه الحرية من الخوف والشهوات... إلخ بدلاً من طلبها؟! إذ يقول: «لقد وضع الآلهة هذا في سعي، إذن

([95]) Ibid., (IV- 4), pp.71, 73.

([96]) Ibid., (IX - 42), p.275.

(ISSN: 2536 - 9555)

أليس الأفضل استخدام ما هو في قوتك كرجل حرّ بدلاً من الاهتمام بما لا يوجد في قوتك مثل العبد؟! ومن قال لك إن الآلهة لا تعنينا حتى في الأشياء التي في قوتنا؟! ابدأ على أية حال بالصلاة لطلب مثل هذه الأشياء، وأنت ترى انطفائها...»[97].

يشير ماركوس إلى عناية الآلهة بالإنسان، وطلب الأنسان منها المساعدة حتى في الأمور التي يقدر عليها، وبمقدار طاعة الإنسان للإله وإتقانه لواجبه يكون حرًا، أما إذا تصرف على نحو ثوري على طبيعته، فإنه يقع في شباك العبودية والشقاء، وعلى الإنسان الاستعانة بالفلسفة، فقد وجد ماركوس «أن كل المدارس تتفق على التمسك بالفلسفة»[98] مهما كانت قسوة الظروف، كأبيقور– على سبيل المثال– الذي حرص على دوام التفلسف وعدم التخلي عن الفلسفة حتى وهو مريض، فكان جسده يتألم وعقله يتفلسف[99]

ولم يجد ماركوس بأسًا في تكرار المرء للمحاولات الجدية ليصيب هدفه، تاركًا اليأس والإحباط جانبًا وغيرهما من المشاعر السلبية التي قد تسيطر على النفس إذا أخفقت في محاولاتها الأولى، وبالتالي ليس هناك ما يستدعي تأنيب الضمير طالما أن المرء يسعى جاهدًا لبلوغ هدفه. فالإنسان عند ماركوس لديه قدرات كامنة تظهر عند التحديات، ناهيك عن القدرات العقلية التي تساعده على التكيف، ولذلك ليس على الإنسان إلا الثقة في إمكانياته وقدراته، وإذا كان الإنسان عند ماركوس هو مواطن في دولة عالمية، وأن المواطنين بينهم صلة قرابة وأخوة، لا حرج من طلب العون والمساعدة التي تهدف للصالح العام[100].

([97]) Ibid., (IX - 40), p.255.

([98]) Ibid., (IX - 41), p.255, 257.

(4) Ibid., (IX - 41), p.255.

([100]) Ibid., (V-20), p.119 ,(VII-11,12,13), pp.169,171.

6- النقـد الذاتي وإيقاظ الضمير عند ماركوس أوريليوس:

لقد حاول ماركوس بث الطاقة الإيجابية والحماس إلى نفسه ونقدها نقدًا ذاتيًا، بحيث يكون هو بمثابة الطبيب المعالج لنفسه. فنراه في تأملاته يقاوم التوتر والقلق والكسل الذي يعوق الإنسان ويجعله يُقَصِّر في أداء واجبه، فيُحدث ماركوس نفسه قائلاً: «في الصباح عندما تجد نفسك غير راغب في القيام، قل لنفسك: «إنني أصحو من نومي لكي أؤدي ما خُلقت من أجله، وما وُجدت في العالم لكي أؤديه، أم تُراني خُلقت لكي ألف نفسي بالأغطية وأبقى دافئًا... حقًا إنه في حاجة إلى الراحة، غير أن الطبيعة وضعت حدودًا للراحة،..... بينما أنت تتجاوز هذه الحدود،..... أما في الأعمال المنوطة بك فأنت تُقصر عن الحد وتقف دون الحد الأدنى من قدراتك، إنك إذن كاره لنفسك، فلو كنت تحبها لأحببت طبيعتك وإملاءاتها»[101]. ويلاحظ أن كلمة «قل لنفسك» الواردة في النص تعبِّر عن الحوار الداخلي بين نفس الإنسان وضميره، والصراع الذي قد ينشأ لعدم التوافق بينهما. ويُعبِّر النص عن نظرة ماركوس للحياة، فالحياة ليست حياة راحة ورفاهية دون حد، فالراحة وكل شيء في الطبيعة له حدود لا يجب تجاوزها، حتى تستقيم الحياة ويتحقق التوازن المنشود. كما أن إنجاز الإنسان لما ينبغي عليه فعله يدل على حبه لنفسه واحترامها في المقام الأول، فأداء الواجب هو برٌّ بالنفس أكثر منه برٌّ بالآخرين لأن الإنسان يمارس طبيعته العاقلة وينسجم بذاته مع عالمه.

فقد كان ماركوس قدوة لغيره من الرجال، فهو لم يفعل واجبه من أجل منفعة أو انتظار لشكر، فالواجب بالنسبة له أمر مقدس يؤدى لذاته، وفي أدائه طاعة للإله وإرضاءً للضمير، وقد كان ماركوس حسن الخُلق لا يعامل الآخرين إلا بما يليق بأخلاقه، فهو لا يبالي بسوء سلوك بعض الناس معه ويقول: «مهما يقل أي

([101]) ماركوس أوريليوس: التأملات، (5-1)، ص ص290، 291.

(ISSN: 2536 - 9555)

شخص أو يفعل فإنه عليَّ أن أكون زمردًا وأن أحتفظ بلوني»[102]. ويقول أيضًا: «فلان يحتقرني؟ هذا شأنه. أما أنا فسأظل حريصًا على ألا يبدر مني أي لفظ أو فعل يستوجب الازدراء. سيكرهني فلان هذا شأنه. أما أنا فسأظل رفيقًا حسن النية تجاه الجميع مستعدًا لأن أظهر فلانًا هذا على خطئه– لا بتأنيب ولا بتصنع التسامح، بل بنبالة وإخلاص حقيقيين،... هكذا ينبغي أن يكون ضميرنا الباطن، الذي تراه أعين الآلهة...»[103]. فقد كان ماركوس شديد الحساسية، ونزعته الدينية قوية، وضميره يقظ، ونفسه نقيَّة، فهو يتجه إلى جوهر الأشياء وينتقي الأمور التي يهتم بها، ويحرص على صلاحه ونقائه الداخلي، وحسن المعاملات الإنسانية وسمو مقاصدها.

لقد أدرك الملك الفيلسوف أن مظاهر الأبهة والبذخ ليس لها قيمة في ذاتها، وأن قيمة الشيء تكمن في جوهره، وبالتالي اهتم ماركوس بالأشياء ذات القيمة والفائدة الحقيقية، فقيمة كل إنسان تُقاس بالأشياء التي يهتم بها. فقد شبَّه ماركوس المواكب والاحتفالات الاستعراضية، وعروض المسرح والمبارزة وكل ما يشبه ذلك بأنه «عظمة ملقاة للجراء، وفتات ملقى لسمك البرك،....عرائس تحركها خيوطها»[104]، وكل هذه التشبيهات كناية عن تفاهة هذه الأمور، وعدم أهميتها وجدواها عند ماركوس، ومع ذلك لم يدع إلى السخرية ممَّن يشاركون في هذه الأمور لأنها مظاهر للحياة، وعلى الإنسان التسامح مع من يفعلها، أما الحكيم فيتجه دائمًا للبحث عن الجوهر وينشغل بالتفكير في حقائق الأشياء.

إن إدراك ماركوس لما سبق أن ذكرناه من قيم أخلاقية ومبادئ فلسفية ودينية وإصراره على تطبيقها لهو انتصار كبير لهذا الإمبراطور، فمعلوم أن للحكم آفاته،

([102]) نفس المصدر، (7–13، 15)، ص ص138، 139.

([103]) نفس المصدر، (11–13)، ص ص225–226.

([104]) Marcus Aurelius, op. cit., (VII -3), pp.165-167.

وللسلطة مغرياتها، التي قد تجر الحاكم إلى مساوئ ورذائل؛ كالغرور، والغطرسة، والظلم، والأنانية، والاستبداد، وحب النفاق، والتملق، والتعلُّق بالماديات، واستنزاف موارد الدولة دون بذل جهد حقيقي في الحكم أوتحقيق إنجازات تنفع المواطنين، فلم يكن ماركوس طاغية، بل حاول أن يكون مواطنًا صالحًا قبل أن يكون حاكمًا صالحًا، لم يتوانَ في محاسبة نفسه لتقويمها وضبطها، فمن نصائحه التي وجهها لنفسه قوله: «لا تجعل من نفسك طاغية، ولا عبد لأي إنسان»[105] ويدل على رفضه للعبودية والطغيان.

ومن أقوال ماركوس: «اتجه إلى ذاتك»[106]، «تذكر أن واجبك أن تكون رجلاً صالحًا وتذكر ما يقتضيه ذلك»[107]، «اختبر دومًا انطباعاتك الذهنية... وطبِّق عليها مبادئ الطبيعة والأخلاق والجدل»[108]، وهكذا نجد في التأملات الملكية تكرار لوجوب التخلُّق بالصفات الحسنة، وإخلاص النيَّة، وضرورة التمسك بجواهر الأمور، والتفكير بعقلانية، واختبار الانطباعات الذهنية وضبطها، وكل ذلك بالاستعانة بالفلسفة بثالوثها الفكري: الطبيعة والجدل والأخلاق، فالفلسفة عند ماركوس تدفع الإنسان إلى تحقيق أهدافه والحفاظ على نقائه والألوهية بداخله. والتحرر من هيمنة المظاهر المادية ووهمية الحياة المعتمدة عليها. فتأمل المرء ما بداخله من مفاهيم عقلية خالصة تجعله يشعر بالهدوء والسكينة.

ويرى ماركوس أنه ليست بالإقامة في المنتجعات يسعد الإنسان ويهدأ، إنما في النفس ذات الثراء الفلسفي، فمظاهر الترف والفخامة تستهوي الطغاة لا الحكماء، وفي ذلك يقول لنفسه: «إنهم يبحثون عن منتجعات لهم في الريف، على البحر، على التلال. أنت بصفة خاصة عُرضة لهذه الرغبة، ولكن هذه من شيم الطغاة،

([105]) Ibid., (IV-31), p.85.

([106]) ماركوس أوريليوس: «التأملات»، (7-28)، ص143.

([107]) نفس المصدر، (8-5)، ص159.

([108]) نفس المصدر، (8-13)، ص163.

(ISSN: 2536 - 9555)

فما زال بإمكانك كلما شئت ملاذًا أن تطلبه في نفسك... فليس في العالم موضع أكثر هدوءً ولا أبعد عن الاضطراب مما يجد المرء حين يخلو إلى نفسه. وبخاصةً إذا كانت نفسه ثرية بالخواطر التي إذا أظلته غمرته بالسكينة التامة والفورية»[109]. يؤكد ماركوس على قيمة الفلسفة ودورها كعلاج للإنسان، فنفس الحكيم هي موطن السعادة بنقائه الداخلي وثرائه الفكري، فالسكينة الداخلية هى جنة الحكيم، والمظاهر الخارجية هى غاية الطاغية، فقد رفض ماركوس الانضمام إلى صفوف الطغاة والإقامة مثلهم في المنتجعات بحثًا عن الهدوء، إنما اصطف مع الفلاسفة ليجد راحته في فكره وإعمال عقله، وحسن قيادته لنفسه، وضبط سلوكه، وفعل الخير دون مقابل أو انتظار ثناء من أحد.

فقد فطن ماركوس إلى أن إرضاء الشعب قد يكون مستحيلاً. فقد قال: «قدر الملوك أن تفعل الخير وتذم عليه»[110]. فقد كان ماركوس إمبراطورًا ذا ضمير حي يقظ. فمنذ زينون حتى ماركوس لم توجد فلسفة تفوق الرواقية في كونها دليل للضمير، فكانت الرواقية تهدف إلى النجاة والخلاص[111]، وكان الروماني يلتمس من الفلسفة العون لقيادة ضميره، فكان ينظر للفيلسوف بوصفه قائدًا للضمير، فلم يكن غريبًا أن تأخذ الأخلاق الطابع العملي كما هو واضح في تأملات ماركوس[112].

7- **بواعث الالتزام بالواجب الأخلاقي لدى ماركوس أوريليوس**:

([109]) نفس المصدر، (1–3)، ص69.

([110]) نفس المصدر، (7–36)، ص145.

([111]) Keimpe Algra, Jonathan Barnes, Jaap Mansfeld, Malcolm Schofield, the Cambridge History of Hellenistic Philosophy, p.727.

([112]) د. عبد الرحمن بدوي: خريف الفكر اليوناني، ص49.

لقد نظر ماركوس إلى الواجب باعتباره غاية قصوى، وأن بإتقانه للواجب يُعبر عن طاعته وتقديسه للآلهة. وقد تعجَّب ماركوس من الإنسان الذي يضيق ويمل من واجبه، ولا يتحمل الأشرار رغم أنه إنسان مثلهم، مقارنةً بالآلهة، التي لا تمل ولا تضيق من واجبها ورعايتها للعالم كله، رغم أن حياتهم خالدة وواجبهم لا محدود، بعكس الإنسان الذي يحيا حياة متناهية، وواجبة محدود[113]. وهنا يقارن ماركوس بين الإنسان والآلهة من حيث الواجب، وإذا كانت هذه المقارنة تبدو صادمة إلى حد ما، إلا أنها تبرز الفرق بين الوجود الإلهي والإنساني أي بين اللامتناه والمتناه، الخلود والفناء، الكمال والنقص، الخير والشر، المطلق والنسبي. كما أنه يوضح أن الواجب ليس شيء خاص بالإنسان، بل أن الواجب كلي شامل لا استثناء فيه، فالآلهة تقوم بواجبها، والإنسان في أداء واجبه يتشبه بالآلهة ويرضيها. فالواجب عند ماركوس ليس مفهوم أخلاقي بشري فحسب وإنما هو مفهوم كوني في أساسه.

لكن ما هو التصور الذي كان في عقل ماركوس عندما استخدم كلمة «إله» أو «آلهة»، ربما قصد الجانب الروحي للكون وأراد تميزه، ففي أكثر حالاته العاطفية هو يشعر أن الطبيعة أقرب وأكثر لطفًا، ثم يعود إلى اللغة المحلية للتقوى الدينية، وبعيدًا عن الامتنان والشعور بالواجب، هو يتحدث بناءً على شعوره بالولاء. ويعترف بأن واجبنا هو اتباع الآلهة، لتقليدهم، وهذا اتجاه ديني واضح في تأملات ماركوس. إن الطبيعة تظل هي السبب الحاسم في الكون، تتحرك في مسيرتها العظيمة لطاعة دستورها الأخلاقي. فهي تصنع الأجزاء، كلها في انسجام، وتنشر الجمال حيث تمر، فهي في كل ما تصنع تجسيد للواجب[114].

([113]) Marcus Aurelius, op. cit., (VIII-70), p.195.

([114]) Henry Dwight Sedgwick, Marcus Aurelius, pp.115-116.

(ISSN: 2536 - 9555)

ويمكن تحديد تصور الرواقية النظري للاهوت في أربعة نقاط: أولاً: الآلهة موجودة، ثانيًا: تحيا حياة خيّرة وخالدة، ثالثًا: تتحكم في العالم، رابعًا، تعتني بالإنسان وتفعل لخيره. ومن هذه التعاليم ينتج سلسلة من البراهين التي لا تزال معروفة كدليل من الدين الطبيعي[115]. وقد ذكر شيشرون أن الآلهة عند الرواقية تحيط علمًا بكل شيء لأنها هي التي نظمت كافة الأشياء، وهذا الاعتقاد على العكس من اعتقاد الأبيقورية التي نفت العناية الإلهية أو أي فعل إيجابي للآلهة تجاه الإنسان أو الكون بأسره[116].

فقد كان ماركوس موقرًا للآلهة، وحاول أن يجمع بين الولاء لـ«مدينة الأرض» والولاء لـ«مدينة السماء»، ولقد أبدع في تصوير المواءمة بينهما، فهو يسعى لتحقق التوازن والعدل، حيث كان يتمتع بضمير حي لم يعرف زمانه من هو أعدل منه بين الحاكمين[117]، فقد كان يجد سعادته في فعله لواجبه وتعاونه مع غيره، وكان يفعل ذلك والإله في خاطره وضميره[118]، فقد كان الباعث الديني هو الذي يدفعه لفعل واجبه الأخلاقي فيقول: «كُن دائمًا بسيطًا، طيبًا، خاشعًا لله، رقيقًا»، «كُن موقرًا للآلهة وراعيًا للناس، فالحياة قصيرة، والتقوى والعمل الصالح هما الثمرة الوحيدة لهذه الحياة الأرضية»[119]، وكان ماركوس يعتقد أن أعلى مراتب القوة تكمن في إرضاء الآلهة، فالغاية النهائية هي أن تتبع العقل والرب[120]. ففي الفترة الرومانية كانت العاطفة الدينية لا تنفصل عن الحماس الوطني، فقد كانت

([115]) E. Vernon Arnold, Roman Stoicism, p.281.

([116]) شيشرون: علم الغيب في العالم القديم، ص192.

([117]) جورج سباين: تطور الفكر السياسي، ك(2)، ترجمة: حسن جلال العروسي، مراجعة وتقديم: د. محمد فتح الله الخطيب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010م، ص ص69–70.

([118]) ماركوس أوريليوس: التأملات، (6–7)، ص113.

([119]) نفس المصدر، (6–30)، ص ص(121، 122).

([120]) نفس المصدر، (12–11، 31)، ص ص243، 251.

المعتقدات دينية وسياسية في آن واحد[121]، فالصفات الحميدة كالشجاعة والعدل والصدق والرحمة... إلخ، كانت من صفات الحاكم المثالي، وكذلك صفات يجب أن يتحلى بها كل إنسان، وقد تلاشت عندهم فكرة ألوهية الحاكم، فهو مواطن بارز بين إخوانه المواطنين[122].

فقد كانت وسيلة الرواقي لوفاقه مع الطبيعة هي الحكمة والفضيلة، ولذلك اضطر إلى فحص مبلغ ما أحرزه من التقدم، وهنا نشأت فكرة النمو الخلقي الواعي[123]، فاعتقادهم بأن الطبيعة محتومة بقانون سببي جعلهم يعتقدون بأن الإهانات التي يوجهها الرجال لهم هي بالتالي محتومة كالمد والجزر، باعتبار أن كل شيء في الكون مادي، وأنه يجب على الحكيم الرواقي أن يفهم هذه الحتمية ولا يهدر جوهره في غضب لا جدوى منه، فالانفعال هو أحد أعراض الجهل، ويجب على الحكيم التحرر منه[124]، فلا يمكن لأحد إلحاق الضرر بالآخرين، ومن ثم ليس من المعقول أن يستاء أحد مما يفعله الأشرار له. وهذا ما طبّقه إبكتيتوس العبد الذي تعلم الفلسفة على يد موسونيوس، بتحمله دون استياء الإساءة التي وجهها له أستاذه. وتحمل قبل ذلك كسر ساقه على يد سيده الذي قام بلويها، فأخبره إبكتيتوس أنه سيكسر ساقه، لكن يبدو أن إبكتيتوس كانت تظهر عليه علامات الهدوء أكثر من الفزع، مما أدى إلى تمادي هذا السيد حتى لوى ساقه إلى أن كُسرت بالفعل.

([121]) مونتسكيو: تأملات في تاريخ الرومان، ص96.

([122]) أ. ب. تشارلزورث: الإمبراطورية الرومانية، ص21.

([123]) و. و. تارن: الحضارة الهللينستية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة: زكي علي، تقديم: مصطفى النشار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2015م، ص356.

([124]) Encyclopedia of Philosophy, Vol.9, p.794.

(ISSN: 2536 - 9555)

ويرى ماركوس أن الذين افترضوا إمكانية توجيه اللوم للنوايا الشريرة والأشخاص، قد جانبهم الصواب، لأن كل الرجال تفعل ما تراه صوابًا[125]. لكن أليس هذا التفكير يتعارض مع المسئولية الخلقية والتميز الواضح بين الخير والشر؟ أليس القول بأن الرجال تفعل ما تراه صواب ولذلك لا يجب لومهم؟ يرجع إلى المبدأ السوفسطائي الشهير أن الإنسان مقياس كل شيء، أي أن يفعل ما يراه صواب بالنسبة له. إن ماركوس يحاول أن يواسي نفسه بقوة ويخلصها من الانفعالات وذلك بالإعتقاد أن أحكامه هي التي تسعده أو تشقيه، فلا أحد يستطيع أن يؤثر عليه سلبًا وبذلك يدعو إلى التصالح والتسامح إلى أقصى حد ممكن.

لقد كان الاعتقاد في القدر المحتوم أرضية مشتركة بين معتنقي الرواقية، فالكون عندهم مهما حدث كلاً حتميًا، محتوم بالخير المطلق[126]، وقد رفض ماركوس مسئولية الإله عن الشر في العالم، لأن طبيعة العالم لا تقدم إلا ما هو خير لحظة تقديمه، فالطبيعة تظهر له زاخرة بالخير والجمال[127]. وقد اعتقد ماركوس أن الإنسان لديه القدرة على أن يكون إنسانًا إلهيًا دون أن يعلم أحد، وأنه ليس شرطًا أن يكون الإنسان ماهرًا في المنطق والفيزياء، لكي يكون حرًّا ومطيعًا للإله[128]، فإذا بحث الإنسان في ذاته وعرف نفسه سيجد أن الخير بداخله وأن الحقيقة تسكنه، فيستطيع الإنسان بصدق النيَّة والتحلي بالصفات الأخلاقية الطيبة أن يكسب رضا الإله، فالإيمان محله الباطن وبه يتحدد الظاهر، وفي تأملات ماركوس تجد الكثير من أقواله الدالة على نزعة صوفية، وحكمة أخلاقية، ومثل أعلى من العقلانية التي جعلت تأملاته من أهم كلاسيكيات الحكمة الوثنية.

---

(125) Alfred William Benn, Greek Philosophers, p.43.

(126) Ibid., p.43.

(127) Paul Barron Watson, Marcus Aurelius Antoninus, p.248.

(128) Marcus Aurelius, the Communings with himself,(VII -67), p.193.

8- الواجب الأخلاقي عند ماركوس أوريليوس بين الوحدة الرواقية والثنائية الأفلاطونية:

بالرغم من اتباع ماركوس للمذهب الرواقي في قوله بوحدة الوجود وأن الكائنات بينها صلة قرابة، وأن العالم كله وحدة مترابطة، إلا إنه كان يميل إلى الاعتقاد في الثنائية، «لقد ابتعد ماركوس عن المادية الرواقية القديمة، وكان مفهومه للعالم ثنائيًا روحانيًا»[129]. فثنائية العقل والجسد dualism نجدها تتكرر في التأملات، مع ازدراء شديد للجسد المادي، وإجلال كبير للعقل الموجه، أو ما يسميه الجزء الإلهي الخفي أو الباطني في الإنسان؛ فنجده يقول: «لن تعود مستعبدًا لوعاء جسدي هو سيد بالغ الدناءة بقدر ما إن عبده بالغ الرفعة، فهذا عقل وروح، وذاك مجرد تراب ودم»[130]. وقد اعتقد ماركوس أن الجسد ما هو إلا غلاف للنفس يؤثر بأهوائه سلبًا على نقاء النفس وسلامتها. وفقًا لما قاله: «أيتها النفس إما أن تكوني صالحة، بسيطة، واحدة، متجردة، أوضح وأجلى من الجسد الذي يغلفك»[131]. وأيضًا حديثه عن الظاهر والباطن، الزائف والحقيقي، فالنفس هي مبدأ الحياة ومكمن الحقيقة متمثلة في العقل. ويذكر ماركوس: «إن ما يحركنا ويشد خيوطنا هو ذلك الجزء الخفي في داخلنا، إنه القوة على الفعل، إنه مبدأ الحياة، إنه، إذا جاز القول، الإنسان نفسه، لذا لا تلتفت وأنت تتأمله إلى الوعاء الذي يحتويه.....» [132]. ويعني ذلك أن العقل أو النفس كالجوهرة الثمينة يغلفها الجسد، فليست القيمة في الغلاف إنما فيما يحتويه، فالأعضاء الجسدية لا جدوى

([129]) فوادسواف تاتاركيفتش: الفلسفة اليونانية، ترجمة: محمد عثمان مكي العجيل، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012م، ص256.
([130]) ماركوس أوريليوس: المصدر السابق، (3-3)، ص58.
([131]) نفس المصدر، (10-1)، ص198.
([132]) نفس المصدر، (10-37)، ص217.

(ISSN: 2536 - 9555)

منها دون القوة الفاعلة التي تحركها، والأنسان يضل طريق الحق دون عقل سليم يوجهه إلى ما ينبغي فعله.

ويبدو هذا النمط من التفكير الفلسفي يرجع لمؤثرات أفلاطونية، حيث النظر إلى النفس باعتبارها جوهر بسيط نقي، مصدرها إلهي ووجودها حقيقي، في مقابل الجسد الذي يُعد مصدر الثقل والاضطراب والوهم، وتمثل النفس الجزء الأعلى، أما الجسد فهو الأدنى والفاني. ويقول ماركوس: «عندما تبكت نفسك على أي شيء، فهذا دليل على أن الجزء الأكثر ألوهةً فيك قد خضع واستسلم للجزء الأدنى والفاني– أي الجسد– ولذاته العنيفة»[133]. أيضًا مسألة خضوع العقل إلى الجسد هو عبودية بغيضة لا يجب أن يقع فيها الإنسان، فالإنسان لا يكون عبدًا إلا للقانون، أي العقل الكوني، أو الألوهية، وفي عبوديته له فهو في اقصى درجات الحرية إذ يقول «العبد الذي يهرب من سيده هو آبق، والقانون هو سيدنا...»[134]. ولذلك على الإنسان أن يسيطر على رغباته ومتطلبات الجسد التي تقوده إلى العبودية الخاطئة، وفي ذلك يقول: «فمن الخصائص التي ينفرد بها العقل أنه يعزل نفسه ولا يتأثر بنشاط الحواس أو نشاط الرغبات. فهذان النشاطان حيوانيان، بينما غاية النشاط العقلي أن يتسيد عليهما ولا يُسلم قياده لهما...»[135].

ورغم أن ماركوس يذهب إلى أن الإنسان مكون من ثلاثة هم: الجسد والنفس والعقل، إلا أنه ينظر بإجلال للنفس والعقل دون الجسد، ويبدو أنه يميّز بينهما من حيث أن النفس هي القوة الفاعلة أو المحركة للجسم، أما العقل فهو الذي يصدر الأحكام، فالعقل غير موجود عند الإنسان وهو رضيع، وإنما يوجد في الوقت المناسب وفقًا للطبيعة. وعلى أية حال فإن العقل هو وصول النفس إلى مرحلة

([133]) المصدر السابق، (11–19)، ص231.
([134]) المصدر السابق، (10–25)، ص209.
([135]) المصدر السابق، (7–55)، ص150.

النضج والأكتمال، ورغم أن ماركوس أحيانًا يميّز بين العقل والنفس، إنما كثيرًا يماهي بينهما، فإذا تأملنا النص الآتي سنجد أنه في بدايته يمايز بين النفس والعقل فيقول: «ثلاثة هي مكوناتك: جسد ونفس وعقل. أما الأولان فهما خاصتك بقدر ما هو من واجبك أن ترعاهما. وأما الثالث فهو خاصتك بتمام المعنى، فإذا نفضت عن نفسك أي عن عقلك- وهنا يماهي بينهما- كل ما يقوله الآخرون ويفعلونه.....، كل ما يجلبه عليك جسدك الذي يغلفك، ونفسك التي تصاحبك، على غير اختيار منك... بحيث يمكن لقوة عقلك، وقد تجاوزت الآن كل الروابط العرضية، أن توجد بذاتها، خالصة حرّة تفعل ما هو عدل،..... جاعلاً نفسك مثل كرة إمبادوقليس: «تامة الاستدارة مبتهجة في نعيم وحدتها»... سيكون بوسعك أن تقضي ما تبقى لك من العمر في هدوء وسكينة وسلام مع روحك الحارس»[136].

وقد اهتم ماركوس بالبحث في طبائع الأشياء وحقيقتها دون الاكتفاء بالمظاهر التي قد تضلل الإنسان، فما جدوى العلم بأن سقراط مات ميتة أمجد من غيره، أو أنه كان بارعًا في جداله مع السوفسطائيين، إن ما يلزمنا بحثه وفقًا لما ارتآه ماركوس هو طبيعة نفس سقراط أي مدى عدالته وتقواه وسلامة نفسه من الأهواء البائسة للجسد[137].

ومثلما ميَّز ماركوس بين الظاهر والباطن، الوهم والحقيقة، فقد ميَّز بين المادة والصورة، ووضح اختلاف مصير كل منهما، فالشيء المادي يتبدد في مادة العالم، أما الصوري أو العقلي فيعود إلى عقل العالم[138]، ويبدو أنه تأثر بأرسطو الذي ميَّز بين هيولى وصوره، فقد قال ماركوس: «مكون أنا من صورة ومادة. ولن تفنى أي منهما وتصير إلى عدم، كما أن أيًا منهما لم تأتِ من العدم»[139]. وقد قال أرسطو بالعدم وتناوله كأحد مبادئ الوجود الطبيعي باعتباره عرض يحدث في

([136]) نفس المصدر، (12-3)، ص ص240-241.
([137]) نفس المصدر، (7-66)، ص153.
([138]) نفس المصدر، (7-10)، ص137.
([139]) نفس المصدر، (5-13)، ص100.

(ISSN: 2536 - 9555)

حالة التغير، أي الأنتقال من القوة إلى الفعل، وحصول الصورة للهيولي، وقد ربط ماركوس بين ثنائية الصورة والمادة بمفهوم التغيير المستمر كما استمدته الرواقية من هيراقليطس، واعتقد أن المادة باقية، أما الأشخاص فتفنى ويعود الجزء العاقل فيها إلى عقل العالم، وتأتي أشخاص غيرها باستمرار، ولكن لا جديد في النظام الكوني، فقط الأشخاص تتغير لكن الأدوار ثابتة فنجده يقول:«إذن كل جزء مني سوف يقيض له مكانه الجديد في جزء ما من العالم، وهكذا إلى ما لا نهاية. وثمة تسلسل مماثل من التغير أتى بي إلى الوجود..... هذا حكم لا ينقضه شيء حتى لو كان العالم مقدرًا له أن يمر بدورات من العود الأبدي»[140]. وهنا تبدو نزعة ماركوس التوفيقية، وأيضًا الشكية التي تتضح في قوله السابق: «حتى لو كان العالم مقدرًا له....»، وهذا يدل على الأحتمالية بدلا من التأكيدية.

فالإنسان في ظل فلسفة ماركوس عليه أن يؤدي واجبه من منطلق اعتقاده بأنه جزء من كل، ولا يجب التنصل من دوره، وكذلك إدراكه للرابطة المقدسة التي تربطه بباقي المخلوقات وخاصةً المخلوقات العاقلة كباعث على الالتزام بالواجب، فيتآزر الإنسان مع رفاقه لتحقيق غاية كونية واحدة في ظل الخضوع لمبدأ واحد وقانون واحد. ولكي يمكنه ذلك عليه أيضًا إدراك أن لديه عقل (موجه)، تكمن سلامته في سيادته على الجسد وحسن قيادته، وألا سيصبح الإنسان عبدًا للجسد بدلاً من عبوديته للإله. فالعبودية الحقة هي العبودية للإله، وهي عبودية تتماهى مع الحرية في نظر ماركوس، ولذلك ينحصر مفهوم الواجب الأخلاقي الاجتماعي عنده بين الاعتقاد بوحدة الوجود الرواقية والثنائية الإنسانية ذات الأصول الأفلاطونية.

وعلى الرغم من اعتقاد ماركوس في وحدة العقل لدى الكائنات العاقلة إلا أنه حفظ لكل إنسان عاقل خصوصيته التي تميزه عن غيره من الناس، فقد قال: «صحيح أننا خُلقنا من أجل بعضنا البعض ولكن لكل منا سيادته الخاصة»[141]. إن الإنسان عليه واجب أخلاقي تجاه الآخرين، ويتمتع بسيادة خاصة وحرية إرادة، ولديه القدرة على الاختلاف فكريًا. ولذلك تحدَّث ماركوس عن العقل وفن إعمال

([140]) نفس المصدر، (5–13)، ص100.

([141]) نفس المصدر، (8–56)، ص175.

العقل باعتبارهما يكفيان ذاتهما بذاتهما وبعملياتهما الخاصة، وركز ماركوس على ضرورة الاتساق والترابط الفكري والمنطقي بين المقدمات والنتائج[142]. وقد ذكر ماركوس أن معلمي الرواقية لم يكن هدفهم تدريب الحكام أو المحكومين على طريقتهم في العمل، وإنما كان هدفهم تحفيز القلب للأخلاقية والحضور وإشراق العقل، بالمنطق والفكر السليم[143]، إنها منظومة تخضع كلها لنفس الطبيعة الباطنية أي قانون العقل، وتتقاسم مع الإله في المدينة الحقيقية الوحيدة[144].

وقد استبعد ماركوس الخيالات، وركز على التفكير بواقعية حيث يمكنه إدراك كيفية تحول الأشياء جميعًا الواحد منها إلى الآخر، وركز على تأمل المبادئ الصورية للوجود، وغايات الأفعال، وحقيقة الألم والسعادة والموت... إلخ، واعتقد أن السبب الأساسي لقلق الإنسان الداخلي ناشئ من طريقة تفكير الإنسان نفسه، فلا أحد يمكنه إحباط الآخر[145]. فالفلسفة عند ماركوس هي أسلوب حياة، وقد احتلت القضايا الأخلاقية أغلب فلسفته، وقد كان سينيكا أيضًا مهتمًا بالأخلاق[146]، لكن ما افتقده سينيكا وتميَّز به ماركوس هو سلطته على نفسه، تلك السلطة التي تميز الإنسان الذي يطبق المبادئ الأخلاقية التي يعظها، وهذه السلطة كانت واضحة أيضًا عند إبكتيتوس[147]. ومن ثم كانت ممارسات ماركوس العملية انعكاسًا لمبادئه النظرية، وأسمى تعليق على وصايا وتعاليم إبكتيتوس الأخلاقية.

ومن الثنائيات التي ذكرها ماركوس أيضًا في تأملاته وكأنهما من المتناقضات: الفلسفة والسياسة، على اعتبار أن الفلسفة تمثل الحرية، إنما السياسة تمثل

([142]) نفس المصدر، (5-14)، ص101.

([143]) William L. Davidson, the Stoic Greek, p.32.

([144]) Keimpe Algra, Jonethan Barne, Jaap Mansfeld, Malcolm Schofield, op. cit., p.770.

([145]) Marus Aurelius, op. cit., (VIII-12), p.327. Also: (V-9), p.109.

([146]) فوادسواف تاتاركيفتش: المرجع السابق، ص256.

([147]) Edward Russell Bernard, Great Moral Teachers, p.91.

(ISSN: 2536 - 9555)

العبودية، وقد قارن ماركوس بين الفلاسفة والسياسيين، فذكر من الفلاسفة: ديوجينيس وهيراقليطيس وسقراط على سبيل المثال، وقد وصفهم بأنهم كانوا أحرارًا لأنهم اهتموا بتأمل الأشياء وبحثوا في صورها ومادتها، وكان سيدهم هو عقلهم، أما القادة السياسيين فوصفهم ماركوس في تأملاته بأنهم كانوا عبيدًا للأشياء المادية ولطموحاتهم السياسية[148].

ومن المدهش أن تجد الإمبراطور ماركوس تلميذًا للعبد إبكتيتوس، وأن الحرية هي الفكرة الرئيسية للعبد، والحكم الذاتي هي الفكرة الرئيسية للإمبراطور، وهذا يدل على أن الظروف المختلفة للفلاسفة الرواقيين هي التي أعطت تأكيدًا للجوانب المختلفة والمتنوعة للفلسفة الرواقية. ولكن أيهما أكثر سعادةً وأيهما أكثر حزنًا، العبد أم الإمبراطور. لا يوجد نزوع إلى الحزن في أسلوب «إبكتيتوس» إنه قوي ومتفائل وشجاع[149] فقد قال: «الحرية والعبودية، إحداهما فضيلة، والأخرى رذيلة، وكلاهما إعمال للإرادة، ولكن حيث لا توجد إرادة، لا يوجد تأثير لأي منهما. فإذا اعتادت النفس أن تكون سيدة البدن، فإن الأشياء التي تنتمي للبدن لا تشارك في الإرادة، ولذلك لا يوجد إنسان عبد من كان حرًّا في إرادته»[150]. أي أن الحرية لا تُعطى من الخارج وليس لها علاقة بالظروف المحيطة بالإنسان، الحرية نابعة من الإرادة، إرادة الإنسان نفسه هي التي تحدد ما إذا كان الإنسان حرًّا أم عبدًا. ولذلك حاول إبكتيتوس أن يمارس حريته رغم ظروفه التي جعلته عبدًا لآخر. أما ماركوس فقد كان من نصيبه تولي أمور الحكم، واستمد فكرة الوحدة الكبرى والكفاح والمدد لتحمل أعباء الحياة العامة ونكباتها القاسية، وكان من نتائج ذلك أن فقدَ ماركوس سعادته[151]، فقد كان لديه حزن «بسكال»*، ونقاء وعذوبة «فينيلون»**[152].

([148]) Marcus Aurelius, The Communings with himself, (VIII-3), p.201.

([149]) Edward Russel Bernard, Great moral Teachers, p.92.

([150]) Epictetus, Discourse, Fr. VIII, pp.406-407.

([151]) شيشرون: علم الغيب في العالم القديم، (مقدمة المترجم)، ص29.

خاتمـــة

يمكن إجمال أهم نتائج البحث في النقاط الآتية:

1- اعتقد ماركوس بالواجب الأخلاقي، وأن الالتزام به هو هدف الحياة الإنسانية، وهذا الواجب مشروط بالعلم به، على أساس أن الإنسان ليس إلا جزءًا من كل، ولا يمكنه الاستقلال التام عنه، ففضيلته متوقفة على الوفاق معه. فتحقيق الإنسان لواجبه هو تحقيق لوجوده وحريته وانتصار لإرادته. ولكي يؤدي الإنسان واجبه المنوط به، لابد من أن يتحلى بصفات أخلاقية منها: الصلاح، التواضع، الصدق، العقلانية، الاتزان، الشهامة، وهذه الصفات لها معاني عند ماركوس. فالعقلاني تدل على الفكر النشيط (اليقظ)، والاتزان، هو القبول الطوعي لما قسمته الطبيعة للإنسان، والشهامة هي علو التفكير فوق انفعالات الجسد السارة والمؤلمة، ويُعد الواجب والقدرة على أدائه شيئًا طبيعيًا وممكنًا لأي إنسان، ففي أدائه لواجبه طاعة للإله وإرضاءً للضمير.

2- الواجب الأخلاقي عند ماركوس هو شعور الفرد بإلزام خلقي تجاه مجتمعه ودينه، يلازمه محاولة جادة لتطبيقه، باعتباره غاية قصوى وبه يحقق المرء الجانب العقلاني فيه.

3- استطاع ماركوس من خلال تطبيق آرائه الفلسفية ذات المرجعية الرواقية أن يجعل عصره يوصف بأنه عصرٌ ذهبيٌ، فقد اعتقد بالمساواة وحقوق الإنسان، والعدالة، والتعاون، والإخاء، والرحمة، فهو كحاكم جزء من الكل، وليس هو كل شيء، ولذلك قدم مثالاً رائعًا للحاكم الفيلسوف.

(*) Blaise Pascal (1623-1662): فيلسوف فرنسي ورياضي وفيزيائي ولاهوتي، من أوائل كبار كتاب النثر الفرنسيين.

(**) Francois Fenelon (1751-1751): فيلسوف وشاعر وكاتب فرنسي ورجل لاهوت كاثوليكي.

(152) Edward Russell Bernard, op. cit., p.92.

(ISSN: 2536 - 9555)

4- ارتبط حكم الإمبراطور ماركوس بنزعة دينية فلسفية جعلت من مفهوم الواجب اساس حكمه، ولكن يؤخذ على ماركوس اضطهاده للمسيحيين وترك الإمبراطورية بعده إلى ابنه الذي عُرف عنه صفات سيئة.

5- تميَّز ماركوس بقدرة فائقة على التوفيق بين السمو الروحي والأخلاقي على المستوى الشخصي من ناحية، ومقتضيات الحكم والإدارة من ناحية أخرى، فقد نظر لمهمته كحاكم بوصفها واجب أخلاقي، فتكشف تأملاته عن مساعيه المستمرة للحفاظ على نفسه نقية غير ملوثة بالخطايا، بحيث لم يجعل وضعه السياسي وسلطته تؤثر سلبًا على أخلاقه.

6- ربط ماركوس اتباع الواجب بالمعرفة الدقيقة للدور المطلوب من الإنسان كي يكون متوافقًا مع الطبيعة، فربط بين الفضيلة والعلم بها، مثلما ذهب إلى ذلك سقراط.

7- الفكرة الجديدة التي قدمتها الرواقية، وتبناها ماركوس هي أن الأخلاق وعلى رأسها الواجب تتجاوز الحدود الوطنية والطبقات، فالعالمية الرواقية تمثل تقدمًا في فكرة المساواة بالطبيعة في الحقوق والواجبات.

8- ميَّز ماركوس بين واجبات شخصية (خاصة) ومجتمعية (عامة)، تهتم الواجبات الشخصية بالحفاظ على الصحة البدنية والنفسية والتخلُّق بأخلاق حميدة، والتزود بالثقافة والمعرفة، والتدين. أما الواجبات المجتمعية فهي متمثلة في دوره كإمبراطور، ودوره كمواطن في الإمبراطورية، والدولة العالمية، وشعوره تجاه أفراد المجتمع الإنساني بالتعاطف والتآزر والتعاون والنصح، التسامح، العطاء.....إلخ

9 – يرتكز مفهوم الواجب الأخلاقي عند ماركوس على عدة مفاهيم أخلاقية واجتماعية، من أهمها الضمير، حرية الإرادة، التعاون، القدوة الحسنة، المساواة، الأخوة العالمية. كما أكد على أهمية النية وصفاء الجوهر، وربطهما بالمحبة والأحسان والشعور بالمسئولية الأخلاقية.

10 – تعرض ماركوس- باعتباره فيلسوف رواقي- لنفس النقد الذي وجه إلى الفلسفة الرواقية لتناقض قولهم بحرية الإرادة الإنسانية والحتمية الطبيعية،

فالجبرية تتنافى مع العقلانية والتحكم الذاتي، وإن كان ماركوس كغيره من الرواقيين لم ير تناقض بين حرية الإدارة والانضباط والطاعة للعقل الكوني.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

أ – العربية:

– ماركوس أوريليوس: 1– التأملات، ترجمة: د.عادل مصطفى، مراجعة وتقديم: د. أحمد عتمان، رؤية للنشر والتوزيع، ط(1)، القاهرة، 2010م.

ب– الأجنبية:

- Marcus Aurelius Antoninus (Emperor of Rome), the Communings with himself- together with his speeches and sayings, a revised text and a translated into English by C. R. Haines, William Heinemann, London, 1915.

ثانيًا: المراجع:

أ – المراجع العربية والمترجمة إليها:

– أ. ب. تشارلزورث:1– الإمبراطورية الرومانية، ترجمة: رمزي عبده جرجس، مراجعة: د. محمد صقر خفاجة، الهيئة المصرية العامة للكتاب– القاهرة، د. ت.

– د. أحمد فؤاد الأهواني:2–المدارس الفلسفية، الدار المصرية للتأليف والترجمة– القاهرة، 1965م.

– د. أحمد عبد الرحيم أبو زيد :3–عن الصداقة لشيشرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994م.

(ISSN: 2536 - 9555)

– ت. ز. لافين:4–البحث الفلسفي من سقراط إلى سارتر، ترجمة: أشرف محمد كيلاني، مراجعة وتقديم: د. سعيد توفيق، المركز القومي للترجمة، ط(1)، القاهرة، 2012م.

– جورج سباين: 5–تطور الفكر السياسي، ك(2)، ترجمة: حسن جلال العروسي، مراجعة وتقديم: د. محمد فتح الله الخطيب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010م.

– چول سيمون:6–الواجب، ج(1)، ترجمه من اللغة الفرنسية: محمد رمضان، طه حسين، تعقيب: الشيخ مصطفى عبد الرازق، تقديم: د. أحمد زكريا الشلق، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط(2)، القاهرة، 2010م.

– ديوجينيس اللائرتي:7–حياة مشاهير الفلاسفة، المجلد الثاني، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة: د. محمد حمدي إبراهيم، المركز القومي للترجمة، ط(1)، القاهرة، 2007م.

– ر. هـ. بارو:8–الرومان، ترجمة: عبد الرازق يسري، راجعه: د. سهير القلماوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1968م.

– ريكس وورنر:9–فلاسفة الإغريق، ترجمة: عبد الحميد سليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م.

– شيشرون:10–علم الغيب في العالم القديم، ترجمه وشرحه وعلَّق عليه: د. توفيق الطويل، الناشر: مكتبة الآداب بالجماميز، القاهرة، د. ت.

– عبد الرحمن بدوي:11– خريف الفكر اليوناني، مكتبة النصرية المصرية، ط(4)، القاهرة، 1970م.

– عثمان أمين:12– الفلسفة الرواقية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1945م.

– فواد سواف تاتاركيفتش:13–الفلسفة اليونانية، ترجمة: محمد عثمان مكى العجيل، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012م.

– محمد ثابت الفندي:14–مع الفيلسوف، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2004م.

– د. محمد علي أبو ريان:15–الفلسفة أصولها ومبادئها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1978م.

– د. مصطفى النشار:16– من التاريخ إلى فلسفة التاريخ قراءة في الفكر التاريخي عند اليونان، الناشر: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د. ت.

– مونتسكيو:17–تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط، نقله من الفرنسية إلى العربية: عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، ط(1)، المغرب، 2011م.

– هرمان هـ. هورن:18–الحتمية– البراهين المؤيدة للحتمية: ضمن كتاب «الفلسفة وقضايا العصر»، ج(1)– (أبحاث ومقالات جمعها جون ر. بور، ميلتون جولد ينجر)، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.

– و. ت. ستيس:19–الحتمية الرقيقة، مشكلة الإرادة الحرة، ضمن كتاب «الفلسفة وقضايا العصر»، ج(1)– أبحاث ومقالات جمعها: چون ر. بور، ميلتون جولد ينجر، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.

– و. و. تارن:20–الحضارة الهللينستية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة: زكي علي، تقديم: د. مصطفى النشار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2015م.

ب– المراجع الأجنبية:

Algra (Keimpe), Barnes (Janathan), Mansfeld (Jaap) and Schofield (Malcolm) : 1- The Cambridge History of Hellenistic Philosophy, Cambridge University Press, Cambridge, 1999.

Arnold (E. Vernon) : 2- Roman Stoicism, Cambridge university press,

(ISSN: 2536 - 9555)

Cambridge, 1911.

Bann(Alfred William) : 3- Greek Philosophy, Vol.2, Kegan Paul, London, 1882.

Bernard (Eduard Russell) : 4- Geat Moral Teachers, Macmillan, New York, 1906.

Bussell (F. W) : 5- Marcus Aurelius and the later Stoics, T & T, Clark, Edinburgh, 1910.

Cleanthes : 6- The Hymn, Greek Text Translated into English with Brief Introduction and Notes by E. H. Blakeney, Macmillan co., New York, 1921.

Cooper (John M.) : 7- Pursuit of Wisdom, Six Way of Life in Ancient Philosophy from Socrates to Plotinus, Princeton university press, Oxford, 2012.

Davidson(William L.) : 8- The Sotic Creed, T & T, Clark, Edinburgh, London, 1967.

Dewey (John) and Tufts (James H. Tufts) : 9- Ethics, Henry Holt and Co., New York, 1932.

Epictetus : 10- Discourses with the Enchiridion of Epictetus, and a View of his Philosophy, by George Long, George Bell and Sons, London, 1800.

Hicks (R. D.) : 11- Stoic and Epicurean, Charles Scribner's Sons, New York, 1910.

Long (A. A.) : 12- "Stoicism in the Philosophical tradition: Spinoza, Lipsius, Butler" in Hellenistic and Early Modern Philosophy, edited by Jon Miller & Brad

Inwood, Cambridge university, Cambridge, 2003.

Miller (Jon) : 13- Stoics, Grotius and Spinoza on Moral Deliberation, in "Hellenistic and early modern Philosophy, edited by Jon Miller & Brad Inwood, Cambridge university, Cambridge, 2003.

Murray (Gilbert) : 14- The Stoic Philosophy, George Allen & Unwin, Ltd., England, 1915.

Oizerman (Theodor) : 15- Problems of the History of Philosophy, translated from the Russian by Robert Daglish Progress Publishers, First printing, Moscow, 1973.

Sedgwick(Henry Dwight) : 16- Life of Marcus Aurelius, Yale University press, London, 1920.

Watson (Paul Barron) : 17- Marcus Aurelius Antoninus, Harper & Brothers, New York, 1884.

Zeno and Cleanthes : 18- The Fragments- with Introduction and Explanatory Notes, by A. C. Person, Cambridge, 1891.

ثالثًا: المعاجم والموسوعات:

أ – العربية:

– د. مراد وهبة: المعجم الفلسفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2016م.

ب- الأجنبية:

(ISSN: 2536 - 9555)

1- An Intermediate Greek English Lexicon Founded Upon the Seventh Edition of Liddell and Scott's, Harper & Brothers, New York, 1889.

2- A Dictionary of Ethics, Translated from Russian, Designed by Alexei Lisitsyn, ed.: by, Group of Authors, Progress Publishers, Moscow, 1990.

3- Encyclopedia of philosophy, Vol.3, editor Chief, Donald M. Borchert , 2nd ed., Thom Gale, new York, 2006.

4- Preus (Anthony), Historical Dictionary of Ancient Greek Philosophy, the Scarecrow press, London, 2007.

5- The Dictionary of Philosophy, ed. By: Dagobert D. Runes, Philosophical Library, New York, W. D.

6- The Concise Encyclopedia of Western Philosophy, ed. By, Jonathan Rée and J. O. Urmson, 3rd ed., Routledge, London, 2005.